سلسلة الوعي الحضاري (٦٥)

دراسة وتحرير
د. شريف عبد الرحمن
مدرس العلوم السياسية -
كلية الاقتصاد والعلوم السياسية- جامعة القاهرة

حروب الجيل الرابع

بين الرواية الأمريكية والرواية المصرية

تقديم
أ.د. نادية محمود مصطفى



دار البشير للثقافة والعلوم

سلسلة الوعي الحضاري (16)

حروب الجيل الرابع

بين الرواية الأمريكية والرواية المصرية

حلقة نقاشية عقدت بمركز الحضارة للدراسات السياسية

بتاريخ 6 أبريل 2015

تقديم:

أ.د.نادية محمود مصطفى

إعداد وتحرير:

د. شريف عبد الرحمن سيف النصر





اسم الكتاب: حروب الجيل الرابع بين الرواية الأمريكية والرواية المصرية

تقديم: أ.د.نادية محمود مصطفى

تحرير: د. شريف عبد الرحمن سيف النصر

موضوع الكتاب: فكر سياسي

عدد الصفحات: 80 صفحة

عدد الملازم: 5 ملازم

مقاس الكتاب: 14 × 20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2587 / 2016

الترقيم الدولي: ISBN: 978 - 977 - 278 - 532 - 2

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

darelbasheer@hotmail.com

darelbasheeralla@gmail.com

ت: 01152806533 – 01012355714

1437 هـ
2016م

حروب الجيل الرابع

بين الرواية الأمريكية والرواية المصرية

فهرس المحتويات

تقديم السلسلة

أ.د. نادية محمود مصطفى

صدر العدد الأول من سلسلة الوعي الحضاري عن مركز الحضارة تحت العنوان التالي: "الثورة المصرية نموذجًا حضاريًّا"، فلقد كانت الثورة المصرية محفزًا لبداية إصدار هذه السلسلة، ولقد توالت السلسلة لتقدم حتى الآن الموضوعات التالية:

الثورة المصرية نموذجًا حضاريًّا (1)، الديمقراطية العالمية من منظورات غربية ونحو منظور حضاري إسلامي في العلاقات الدولية، الثورة المصرية نموذجًا حضاريًّا (2)، مستقبل الثورات مع صعود الإسلاميين.. رؤية من منظور الفقه الحضاري الإسلامي: من فقه الأصول إلى فقه الواقع وفقه التاريخ، دوائر الانتماء وتأصيل الهوية، المرحلة الانتقالية: قراءة في المشهد المصري، أمتي في العالم: مقدمات الحكيم البشري، الثورات العربية في النظام الدولي، السياسة الأمريكية والثورة المصرية، القوة الذكية في السياسة الخارجية: دراسة في أدوات السياسة الخارجية الإيرانية تجاه لبنان (2005 – 2013)، قرن الرعب الأفريقي: الغزو والمقاومة، قراءات

في فكر أعلام الأمة، العنف والتحول الديمقراطي في مصر بعد الثورة، إعادة نظر في الأمن القومي المصري والعربي في ضوء تحولات الربيع العربي، تجديد الوعي بنظام الوقف ومقاصده.

إن تجديد الوعي الحضاري وإيقاظه، وخاصة في مرحلة الثورات، وبدرجة أخص حين تواجه هذه الثورات تحديات، يتطلب أمرين: من ناحية أولى: استدعاء الكثير من المفاهيم، الداخلية والخارجية، مثل: الثورة، والديمقراطية، والعدالة، والتغيير العالمي، والقوة، والانتماء والهوية، والأمن والعنف. كما يتطلب– من ناحية أخرى – تقويم الخبرات والتجارب، وخاصة تلك المتصلة بالحركات السياسية الإسلامية، وتلك المتصلة بخبرات النماذج الفكرية الإسلامية عن الأمة والنهوض والتجديد والاستقلال، أو المتصلة بتاريخ الاستعمار وورثته في الداخل المصري والإقليمي العربي، أو بدور قوى إقليمية في جوارنا الحضاري وما تمثله سياساتها من فرص أو قيود وضغوط في المنطقة. ناهيك بالطبع عما يتصل بخبرة الثورة المصرية ذاتها كنموذج حضاري وما تواجهه من تحديات داخلية وخارجية، وثورة مضادة منبعها النظام الدولي والإقليمي المحيط بكافة الثورات العربية.

ولعل الأعداد الصادرة من السلسلة حتى الآن تكون قد أسهمت في الاستجابة لبعض هذه المتطلبات. ويظل الاحتياج قائمًا لمزيد من العمل في مجالات أخرى؛ حفزًا للوعي الحضاري وتجديده، باعتبار هذا الوعي هو المنطلق والأساس لتغيير حضاري مأمول.

ولقد تعددت مداخل تحليل الثورة المصرية (ثورة 25 يناير) وتطور مسارها عبر ما يزيد عن الأربعة أعوام حتى الآن، ما بين المداخل الاجتماعية والاقتصادية والمداخل السياسية، سواء المتصلة بتوازنات القوى السياسية الرسمية وغير الرسمية أو توازنات القوى المدنية والشعبية والدينية. وبقدر ما كان الداخل حاضرًا بوطأة تحولاته على الثورة وهي تواجه ثورة مضادة، بقدر ما كان الخارج حاضرًا أيضًا بقوة، سواء فيما يتصل بالإطار الإقليمي "غير الصديق" للثورات في عمومها، أو فيما يتصل بالإطار العالمي؛ حيث أضحت مصائر الثورات والثورات المضادة أوراق مناورة في لعبة التوازنات بين القوى الكبرى.

وفي هذا الإطار يتناول هذا الكتاب موضوعًا كثُر تداوله إعلاميًّا في الفترة الأخيرة حول ما يُعرف بـ"حروب الجيل الرابع". ويلقي الكتاب الضوء على أصل هذه المقولة المتمثل في نظرية أمريكية النشأة، نتاجًا لما واجهه النظام الأمريكي والغرب من أنماط جديدة للحروب ووسائلها وأدواتها، وفواعل وأطراف من غير الدول، وكيف تطورت الحروب عبر أجيالها الأربعة. ثم يبين كيف انتقلت هذه النظرية وتم تداولها في عالمنا العربي بتحريف يصل إلى حد التضاد في مضمونها.

فالكتاب يبين كيفية نشأة النظريات في الغرب، خدمة لمصالح وبحثًا عن مخارج لما يواجهه من مستجدات على أرض الواقع. وفي المقابل كيف تنتقل وترتحل تلك النظريات وما يرتبط بها من مفاهيم مشوهة

وملتبسة، بوعي أو بغير وعي، أو حتى بتعمد وفعل مقصود منا، وكيف نتبناها ونستهلكها "بمَلَكية أكثر من الملِك"، في سياق تشويه الوعي الجمعي للشعوب والتلاعب بعقولها في سبيل اختلاق شرعية مزيفة والحفاظ عليها.

وفي هذا الإطار، يسعد مركز الحضارة للدراسات السياسية أن يقدم في العدد السادس عشر من السلسلة قراءة علمية في هذا الموضوع، تقدم الكثير من الدلالات في هذا المجال.

نوفمبر 2015

■ الجزء الأول

حروب الجيل الرابع
بين الرواية الأمريكية والرواية المصرية

تمهيد

على الرغم من أن نظرية "حروب الجيل الرابع" قد نشأت في أحضان مراكز الأبحاث الأمريكية لتفسير الصعوبات التي تواجهها أمريكا وحلفاؤها في التصدي لحركات المقاومة (التي يصفونها بالإرهابية) والجماعات المسلحة من غير الدول، وللتحذير من أن الولايات المتحدة وفق استراتيجتها العسكرية السائدة قد لا تكون في الوضع الذي يمكنها من خوض هذا النوع من الحروب؛ فإن هذه النظرية الأمريكية "الخالصة" قد تلقفتها أنظمة عربية (سوف تركز الورقة على النظام المصري)[1] لتفسر من خلالها الصعوبات التي تواجهها منذ نشوب ثورات الربيع العربي، ولتبرر الإجراءات التي اتخذتها لكبح اندفاعة عملية التغيير الشامل، متهمة

(1) بخلاف النظام المصري، يستخدم معلقون موالون لنظام الرئيس السوري بشار الأسد النظرية بكثافة، لوصف ونقد الحراك الثوري الذي تشهده سوريا منذ انطلاق شرارة الربيع العربي. انظر على سبيل المثال: جمال الدين خضور، سورية وحروب الجيل الرابع، وكالة أوقات الشام الإخبارية، 8 أغسطس 2014، على الرابط: http://www.shaamtimes.net/news-detailz.php?id=10156، مها جميل الباشا، حرب الجيل الرابع وخفاياه، صحيفة المنار، 17 مارس 2015، على الرابط: http://www.manar.com/page-23872-ar.html

"أمريكا" (وقوى أخرى غير متجانسة) بالوقوف وراء الفوضى التي عمت العالم العربي إبان هذه الثورات، وذلك بزعم رغبة هذه القوى في خلق واقع جديد على الأرض، يقوم على تفكيك الدول العربية وإفشالها، كمقدمة لإحكام السيطرة عليها. وهكذا صار للنظرية روايتان مختلفتان حول طبيعة التهديد الذي يمثله هذا النمط من الحروب، وحول الطرف الذي يقف وراءها.

فما حقيقة هذه النظرية وما هي مقولاتها الأصلية، وكيف تم تأويلها من قبل الأطراف المختلفة التي تبنتها، وما أوجه الاتفاق والاختلاف بين رواياتها المتباينة؟ أسئلة سوف تحاول هذه الدراسة إجابتها، مع التطرق لعدد من القضايا ذات الصلة، وأبرزها الكيفية التي تناولت من خلالها نظرية حروب الجيل الرابع: "الإسلام السياسي"، فضلًا عن مناقشة للاتهامات التي وجهت إلى ثورات الربيع العربي بأنها وليدة هذا النوع من الحروب.

(1)

نشأة المفهوم وبداية القصة

ظهر مفهوم "حروب الجيل الرابع" في أواخر ثمانينيات القرن الفائت، في إطار تفكير معاهد الأبحاث الأمريكية "المحافِظة" في أنسب الطرق لمواجهة الجماعات المقاتلة غير النظامية (مثل حزب الله وحماس). وذلك بعد التجارب شبه الفاشلة للعسكرية الأمريكية في كل من فيتنام وشبه الجزيرة الكورية. وكان أول ظهور للمفهوم في مقالة لكل من ويلايام ليند، وجون شميت، وجوزيف ساتون، وجاري ويلسون، في عام 1989 بعنوان "The Changing Face of War: Into the Fourth Generation"[1]. ثم عاد "ويليام ليند" بمفرده للكتابة حول هذا الموضوع في مقال بعنوان "Understanding Fourth Generation War"، نشره في مجلة Military Review، في عام[2] 2004.

(1) William S. Lind، Keith Nightengale، John F. Schmitt، Joseph W. Sutton، and Gary I. Wilson، The Changing Face of War: Into the Fourth Generation، Marine Corps Gazette، November 2001.

(2) William، S. Lind، Understanding fourth Generation Warfare، Alabama: The Air University، Air War College، Military review. 2004.

وقد اكتسب المفهوم شهرته مطلع التسعينيات بسبب تداعيات حرب العراق، وما تزامن معها من هجمات حملت توقيع تنظيم القاعدة في العديد من دول العالم، ثم تأكد استخدام المفهوم مع تورط الولايات المتحدة في الصومال، ثم تعرضها لهجمات 11 سبتمبر، وإعلانها الحرب على حركة طالبان في أفغانستان، ثم شنها حرب العراق الثانية، وهى الأزمات التي تحول بسببها المفهوم إلى ما يشبه النظرية التفسيرية[1].

ملخص المفهوم/ النظرية أن الحرب الحديثة قد تطورت من استخدام "القوة البشرية المكثفة"، إلى استخدام "قوة النيران"، إلى استخدام "المناورات"، وأخيرًا إلى استخدام "توليفة من الأدوات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية"؛ لإقناع الخصم أن أهدافه إما غير قابلة للتحقيق أو مكلفة للغاية. والأمر المهم أن الطرف الذي يشن الحروب في جيلها الرابع – وفقًا للنظرية – هو فاعل من غير الدول؛ ميليشا أو جماعة مسلحة.

بهذا المعنى تكون نظرية "حروب الجيل الرابع" قد خرجت عن كونها نظرية في الاستراتيجية العسكرية؛ لتصبح ذات "طبيعة سياسية" أيضًا، فإذا كانت الأجيال الثلاثة الأولى من الحروب قد تضمنت قرارات تأخذها

(1) حتى إن وليم ليند قد أتاح ما أسماه دليلًا كاملًا عن النظرية على الرابط: http: / /www. military.com /ContentFiles /4gw_manual_draft.doc

سلطات مركزية لدول ذات سيادة، فإن ما تؤكده النظرية - فضلًا عن أن ثمة نمطًا رابعًا من الحروب يأخذ طريقه إلى التشكل - هو أن هناك فواعل سياسية جديدة أصبحت تمتلك اتخاذ قرار الحرب الذي كان محجوزًا من قبل للدول.

بعبارة أخرى فإن ما تتنبأ به النظرية ليس أن الدول ستلجأ في المستقبل على نحو متزايد لاستخدام هذا النمط من الحروب للتدخل في شئون دول أخرى، ولكن أن الحروب ما بين الدول ستتراجع لصالح نزاعات تنشب بين الجيوش النظامية وجماعات أو فواعل من غير الدول[1].

هذا وينتمي الكثير من أنصار نظرية "حروب الجيل الرابع" إلى معسكر المحافظين التقليديين Paleo –conservatives ممن يؤكدون على فوائد العزلة، وأهمية عدم تورط الولايات المتحدة في حروب خارج أراضيها لأغراض إنسانية أو ما شابه[2]. وعلى العكس من المحافظين الجدد الذين يسعون لبناء "إمبراطورية أمريكية" من خلال تقنيات الفوضى الخلاقة والتدخل الخشن في شئون الآخرين، يسعى التقليديون إلى المحافظة على

(1) George Friedman، Beyond Fourth Generation Warfare، ROA National Security Report، September 2007.

(2) من أهم المنتمين إلى هذا التيار المنظر الأساسي لنظرية حروب الجيل الرابع وليم ليند William Sturgiss Lind، والذي يوصف بأنه Director of the Center for Cultural Conservatism at the Free Congress Foundation

الجمهورية، ويؤكدون على أهمية الحفاظ على نقاء القيم الأمريكية، من خلال تقليل الاحتكاك مع الأمم الآخرى المغايرة حضاريًّا[1].

نظرية حروب الجيل الرابع، تنبثق بهذا المعنى عن نزعة غير تدخلية لدى مطوريها من المحافظين التقليديين، فالنظرية تناقش سبل الحفاظ على الداخل الأمريكي من خلال استراتيجيات لصد هجمات الجماعات المتمردة المناوئة للثقافة الغربية، بعبارة أخرى تقدم النظرية مفهومًا دفاعيًّا، بدرجة كبيرة، وهو عكس الانطباع الذي تستخدم في إطاره من قِبل الأنظمة العربية، التي تستحضر النظرية للإيحاء برغبة الآخرين (أمريكا وحلفائها) في الهجوم عليها والتأثير في شئونها الداخلية.

نهاية الدولة وبداية حروب الجيل الرابع

بشكل عام يتفق منظِّروا حروب الجيل الرابع مع الطرح الذي يعتقد بـ/ يحذر من تراجع "الدولة القومية" وخصوصًا في إطار منظومة دول العالم الثالث، أو أنظمة ما بعد الاستعمار. ومن بين الأسباب التي تُطرح

(1) تخلط العديد من الدراسات بين مفهومي "حروب الجيل الرابع"، و"الفوضى الخلاقة"، بناء على خلط أعمق بين اتجاهات التيار المحافظ داخل الولايات المتحدة الأمريكية، لمراجعة نموذج لهذا الالتباس انظر دراسة ضياء الدين ظاهر، الحروب غير المتكافئة، الجيل الرابع وما بعده، كتابات الإخبارية، 10 مارس 2015، إبراهيم الصياد، الفكر الشيطاني وحروب الجيل الرابع، البوابة، 25 فبراير 2015، على الرابط: http: / /www.albawabhnews.com /1137008

لتفسير ذلك التخصيص تختار النظرية ذلك المتعلق بتعثر عملية التحديث في العديد من هذه الدول، الأمر الذي أفرز عددًا من الأنظمة الفاشلة التي لم تستطع أن تفي بمتطلبات وشروط الدولة الحديثة، وخصوصًا ما يتعلق بشرط المواطنة، فهذه الأنظمة لم تنجح في أن تقدم لشعوبها من الحقوق والامتيازات ما تستحوذ به على ولائهم السياسي، ولم تنجح من ثم في جعل رابطة المواطنة تعلو على غيرها من الروابط، ما أدى إلى تراجع الولاء السياسي للأفراد إلى الدوائر الأولية (ما قبل السياسية)، مثل الدوائر الدينية، والعرقية، والعشائرية. وهكذا لم تعد المواطنة هي قوة الجذب المركزي، كما كان الحال إبان نشأة دولة ما بعد الاستقلال، وإنما أصبحت ثمة مراكز جذب أخرى، تتمثل في الدين والعرق والعشيرة.

ومما سهل من عمليات "الجذب" في مواجهة عمليات "الطرد" تنامي وسائل الاتصال وتبادل المعلومات بين الأفراد بعيدًا عن أعين الأنظمة، بحيث أصبح في مقدور الأفراد أن يجدوا المتشابهين معهم مهما تناءت بهم السبل؛ ليشكلوا معًا تكوينات لا تخضع لسلطة الدولة ولا لسيادتها، بل ويمارس (بعضها) العنف ضد الدولة، في إطار فواعل جديدة من غير الدول، تزاحم الدول في صلاحيتها وتوجه لها تهديدًا عسكريًّا ووجوديًّا في بعض الأحيان.

وعلى هذا الأساس تفترض النظرية أن الدولة الحديثة قد فقدت – ضمن ما فقدت – احتكارها لقرار الحرب، وأصبحت مضطرة للدخول في مواجهات/ حروب ضد تكوينات غير نظامية، منتشرة عبر العالم،

تستخدم إلى جانب "قوة السلاح"، وسائل "القوة الناعمة"، وعلى رأسها المعلومات، وتتمتع بالمقدرة على شن حروب، لا تستهدف من خلالها هزيمة خصومها عسكريًّا، ولكن تحطيم إرادتهم السياسية، وإقناعهم بعدم جدوى الاستمرار في مواجهة هذه الكوينات المقاتلة، وهو ما تحقق فعليًّا في العديد من الحالات.

ففي الوقت الذي لم تتمكن فيه أي دولة عادية من أن تحارب فضلًا عن أن توقع الهزيمة بأي من الدول الكبرى في إطار النظام الدولي المعاصر، فإنه من خلال هذا النوع من الحروب ذاق عدد من هذه الدول الهزيمة على يد جماعات أضعف منها بالمقاييس التقليدية للقوة. فتعرضت أمريكا للهزيمة (وفقًا لتعريف النظرية لمفهوم الهزيمة) في كل من فيتنام، ولبنان، والصومال، أفغانستان والعراق[1]. كما تعرضت القوات الفرنسية للهزيمة في كل من فيتنام والجزائر، وتعرض الروس للهزيمة في أفغانستان، ثم لانكسارات خطيرة في الشيشان[2]. الأمر الذي يعكس وفقًا للنظرية تغيرًا

(1) انظر على سبيل المثال:

Greg Wilcox and Gary I. Wilson, Military Response to Fourth Generation Warfare in Afghanistan, Defense and the National Interest, 5 May 2002.

(2) See Ivan Safranchuk, Chechnya: Russia's Experience of Asymmetrical Warfar, Terrorism Project, Center for Defense Information, 19 November 2002, at: http://www.southasiaanalysis.org/paper619



في علاقات القوة، وفي الطريقة التي بات يُنظر من خلالها إلى كيفية إحراز النصر، ففي كل هذه الأمثلة تمكن الطرف الأضعف، من إجبار الطرف الأقوى على العدول عن هدفه، وإقناعه (قسرًا) بعدم جدوى الاستمرار في محاولة تحقيقه. وفيما لا يمثل هذا انتصارًا وفقًا للمعنى التقليدي، فإنه على الأقل يمثل غلبة لكفة الطرف الذي تبنى هذا النوع من الاستراتيجيات[1].

(1) Ivan Arreguín -Toft، How a superpower can end up losing to the little guys، Neiman Watchdog، at: http://www.niemanwatchdog.org/index.cfm?fuseaction=background.view&backgroundid=00163&stoplayout=true&print=true، March 23، 2007، Jeffrey Record، Why the Strong Lose، Parameters، Winter 2005، pp. 16: 31

(2)

الأجيال الأربعة للحرب[1]

تفترض النظرية أن "الحرب الحديثة" ظاهرة ولدت مع صلح ويستفاليا 1648، الذي أسس لنظام الدولة القومية، وأنهى حرب الثلاثين عامًا التي نشبت لأسباب دينية. فمنذ ذلك التاريخ احتكرت "الدولة القومية" قرار الحرب، كواحدة من أدواتها السياسية لحماية مصالحها وأهدافها، واعتبر على نطاق واسع أنه من غير المسموح أن تنشب الحروب لأي أسباب لا تتعلق بحماية مصالح الدول، أو بين أي أطراف من غير الدول.

ثمة نقطة أقرب يؤرخ من خلالها البعض لبداية الحرب الحديثة تتمثل في بدء ظاهرة التجنيد الإلزامي، خلال الحروب النابوليونية، والتي أنهت الاعتماد على الجنود المرتزقة، ودشنت ظهور الجندي النظامي المجند في إطار من الولاء لدولة بعينها. وأيًّا ما كان التاريخ الدقيق لبداية ظهورها، وانطلاقًا من احتكار الدولة لقرار الحرب، تفترض النظرية أن الحروب الحديثة قد تحركت عبر أربعة أجيال:

(1) لاستعراض تفاصيل أجيال الحروب على نحو مسهب؛ انظر:

Scott Davis, American military history and its insights into fourth generation warfare, US Army Command and General Staff College, 2006.

الجيل الأول

في إطار حروب هذا الجيل أخذت المعارك شكل مواجهة مباشرة بين جيوش نظامية؛ حيث يخطط ميدان القتال (أرض المعركة) بطريقة هندسية، يصطف في إطارها الجنود من الطرفين المتقاتلين في مواجهة بعضهم البعض في صفوف متوازية، وإمعانًا في الحفاظ على الانتظام كانت القوات المتقاتلة تتحرك تجاه بعضها البعض على إيقاع دقات الطبول، تحت توجيه قيادات مركزية من ذوي الرتب الأعلى.

وفي إطار هذا الجيل من الحروب كانت أدوات الحرب بدائية، كما كان القتال يعتمد على الاشتباك المباشر بين المتقاتلين. ولكن ما يميز هذه المرحلة هو ارتباطها بمعنى "النظام" ORDER، فطريقة إعداد أرض المعركة، وطريقة اصطفاف الجنود كانت تعكس تصورًا ذهنيًّا منظمًا للحرب، وهو نفس التصور الذي يعكس الفارق بين الحياة العسكرية الرسمية ذات التقاليد المنضبطة والحياة المدنية (ذات التقاليد الأقل انضباطًا)؛ حيث الأولى توصف بأنها نموذج للنظام في أقصى صوره، فيما الثانية توصف بأنها مثال للعشوائية!

بدأت المشاكل تواجه هذا النمط المنظم من أنماط الحروب - وفقًا للنظرية - منذ منتصف القرن التاسع عشر. فمع تطور الأسلحة، وأدوات القتال، صار اصطفاف الجنود في مواجهة بعضهم البعض نوعًا من الانتحار، وأصبحت الطريقة التقليدية لتنظيم ساحات المعارك غير متوافقة

مع التطور الذي لحق أدوات الحرب، وهذا ما دفع مخططي الحروب إلى إعادة التفكير بشأنها، إيذانًا ببداية الجيل الثاني.

الجيل الثاني

بدأ الجيل الثاني من الحروب بالتزامن مع محاولة حل التناقض بين عقلية النظام العسكري (الانضباطية) وبين التطور الذي لحق أدوات القتال. وينسب المؤرخون العسكريون الفضل للجيش الفرنسي في تدشين هذا النمط من الحروب، عبر استخدامه قوة النيران المجمعة، بهدف استنزاف قوة الخصم. وقد لخص العسكريون الفرنسيون هذه الاستراتيجية في مقولة "المدفعية تكتسح، والمشاة يحتلون المواقع".

ورغم هذا التغيير في الأدوات فقد ظل "التخطيط المركزي" أساسيًّا في إطار هذا النمط من الحروب. ففي إطار هذا الجيل تمت إعادة ترتيب ساحة المعارك من خلال تقديم المدرعات والقطع الحربية على الأفراد، ولكن لم يتم التضحية بمفهوم الانتظام، فقد ظل جزء كبير من الاهتمام ينصبُّ على الشكل أو الطريقة التي تنظم بها ساحة القتال، كما جرى التأكيد على ضرورة ألا تخالف الاعتبارات الجديدة المعايير الصارمة المنظمة للأسلوب العسكري، فالانضباط وتدرج الأوامر من أعلى إلى أسفل والتقدم على الأرض بهدف الاستيلاء على مواقع العدو؛ كل هذه العناصر ظلت حاسمة في إدارة العمليات العسكرية. وحتى عندما حل الطيران محل المدرعات كمصدر للقوة العسكرية الحاسمة - وفقًا للنظرية - لم يتغير

الأمر كثيرًا، إذ ظلت مفاهيم النظام والانضباط سيدة الموقف. فالطيران يقصف من الجو، والمدرعات تتقدم على الأرض، والجنود يتحركون تحت حمايتهما في ظل توجيه مركزي صارم.

الجيل الثالث

مع تزايد قوة النيران، وغلبة التشتت على ساحة المعارك (فقدت شكلها الانتظامي الانضباطي) أصبحت "المناورة" هي كلمة السر في إطار الجيل الثالث من الحروب، وينسب الفضل في تطوير المناورات كأسلوب للقتال إلى القوات الألمانية (وذلك بعد أن تراجعت قدراتها الهجومية ورصيدها من المعدات والأسلحة في أعقاب هزيمتها في الحرب العالمية الأولى)؛ حيث طورت تكتيكًا جديدًا للقتال، لم تعد فيه قوة النيران هي العنصر الحاسم، ولكن السرعة والقدرة على الالتفاف والمفاجأة. فالطرف المهاجم في إطار هذه النوع من الحروب يسعى للوصول إلى نقاط العدو الخلفية ومهاجمتها، فيما يسعى الطرف المدافع إلى استدراج العدو وقطع خطوط إمداده. بعبارة أخرى لم يعد التخطيط العسكري في إطار حروب هذا الجيل يستهدف مجرد التقدم إلى الأمام واستنزاف الخصم على نحو مستمر، ولكن تطويق العدو وإيقاع الهزيمة به عبر نقاطه الضعيفة.

وفي إطار حروب هذا الجيل حدث قدر من التحرر من مفاهيم الانتظام الشكلية، لصالح التركيز بدرجة أكبر على النتائج (المضمون)، فقد يتطلب "تحقيق النصر" التحرك بمرونة، ومخالفة بعض تعليمات القيادة لصالح

الاستجابة لما يستجد من تطورات ميدانية. كما أن الطريقة التي تصاغ بها الأوامر نفسها قد تغيرت، فلم تعد تحدد الأسلوب بقدر ما أصبحت تركز على الهدف المتوخي تحقيقه. ليصبح للمبادرات أهمية أكبر من مجرد طاعة الأوامر والالتزام الحرفي بها.

حروب الجيل الرابع

تشمل الحروب التي يكون أحد أطرافها جماعة مقاتلة أو فاعل من غير الدول Non –state actor. وترتبط بظهور أشكال من القتال غير النظامي، القائم على إنهاك الخصم بطرق تختلف عن طرق الجيوش الحديثة. وقد ورثت حروب هذا الجيل العديد من صفات الجيل الذي سبقها؛ مثل المرونة واللامركزية وأولوية المبادرة على الطاعة، ولكنها اتصفت في الوقت نفسه بعدد من الخصائص الإضافية. ففي إطار حروب الجيل الرابع يختلط التخطيط الحربي بالسياسي، والمدني بالعسكري (أصبحت الشعوب مستهدفة مثلها مثل الجيوش)، والاستراتيجي بالتكتيكي، والأهم أن الشكل المركزي للحرب قد انتهى لصالح شكل جديد لا مركزي.

خصائص حروب الجيل الرابع

أهم خصائص حروب الجيل الرابع عدم التناظر أو اللاتماثل بين الأطراف المتقاتلة في إطارها، بمعنى وجود تباين شاسع في القدرات والمنطلقات والأهداف بين الأطراف، فهي حروب بين جيوش وبين جماعات مقاتلة من غير الدول. هذه الجماعات المقاتلة قد تكون عابرة للقوميات، والأغلب ألا تكون

ذات انتماءات قومية أصلًا؛ فهي لا تُعرِّف نفسها من خلال الانتماء لدولة معينة، ولكن بكونها جزءًا من تكوينات تقوم على أساس فكري أو أيديولوجي معين يوظف أساليب جماعات التمرد وحروب العصابات.

ومن المعتاد أن تضم هذه الجماعات المقاتلة تكوينات من المتطوعين المدنيين ممن قد يحملون جنسية الدولة الخصم نفسها. كما أن المقاتلين هنا لا يلتزمون بزي رسمي، ويصعب تمييزهم في كثير من الأحيان عن المدنيين، كما يصعب تمييزهم عن بعضهم البعض من حيث الهرمية. وبشكل عام لا توجد قيادات ثابتة لهذه التكوينات المتقاتلة، وإنما هناك سيولة ومرونة كبيرة تعوق الخصم عن استهداف رموز هذه الجماعات.

وتستخدم هذه الجماعات وسائل غير تقليدية في القتال، ولا تلتزم في إطاره بالاتفاقات أو الأعراف المعمول بها بين الدول والجيوش المتحاربة. إذ تعمد إلى استخدام كافة أشكال الضغط على الخصم، من خلال ضرب أهدافه السياسية والاقتصادية والهجوم المباشر على رموزه الثقافية (على اعتبار أن الثقافة هي الوقود الحقيقي الذي يغذي هذا النوع من الحروب)، كما قد تستهدف المدنيين (لإرغامهم على ممارسة ضغط على حكوماتهم لوقف القتال)، وذلك على امتداد المجتمع الذي يصبح بأكمله ساحة للمعارك[1].

(1) Jason Vestdec, Fourth -generation Warfare, 2001, at: http://www.theatlantic.com/magazine/archive/200112//fourth -generation -warfare/302368/

وتتميز الجماعات المهاجمة في إطار هذه الحروب بأنها ليست ذات كثافة عددية، ولكنها تكتيكية وسريعة، الأمر الذي يضمن لها القدرة على المناورة والتحرك بسهولة وسرعة على الأرض، كما يحرم خصومها من الاستفادة من زيادتهم العددية وقدرتهم على الحشد. ولا تعتمد هذه الجماعات عن أى دعم (إمداد وتموين) مركزي، وإنما على الإمدادات اللوجيستية التي يمكنها حملها حتى ساحات المعارك.

أيضًا يتضمن هذا النوع من الحروب استخدامًا واسعًا لأساليب الحرب النفسية والتلاعب الإعلامي والتدخل المعلوماتي[1]، لتوجيه الرأي العام في اتجاهات بعينها، ولهذا افترض البعض أن شاشة التلفاز قد تكون أكثر تأثيرًا من الوحدات المدرعة في إطار هذا النوع من الحروب.

ومن ناحية المدى الزمني تعد حروب هذا الجيل طويلة المدى، ومن ثم لا يمكن حسمها من خلال ضربات استباقية أو مركزة، لعدم وجود مراكز لقوة الخصم. وإذا كان الاستراتيجي الشهير كارل فون كلاوزفيتز قد افترض أن الطرف المهاجَم عليه أن يرد باستهداف مركز قوة الخصم، لإخراجه عن توازنه وكسر شوكته، فإن المشكلة في حروب الجيل الرابع أنها مصممة بحيث تحرم الطرف المهاجَم من أن يجد مركزًا يستهدفه بضرباته المضادة.

(1) William Lind، The Changing Face of War: Into the Fourth Generation ، Marine Corp Gazette، October 1989. Marine Corps Gazette، October، 1989، p. 24.

المكون الثقافي في إطار حروب الجيل الرابع

إذا كانت "أزمة الدولة القومية" هي كلمة السر وراء انبثاق هذا النوع من الحروب، بوصفها الأزمة التي دفعت الأفراد إلى البحث ضمن الهويات البديلة، فإن الوقود اللازم لاستمرار هذه الظاهرة - وفقًا للنظرية - هو الانتماء إلى ثقافة تحرض على التمرد.

ويصرح منظرو حروب الجيل الرابع بوضوح أن الثقافة الأساسية المتمردة على الحضارة الغربية حاليًا هي الثقافة الإسلامية. وعندما يُستخدم مفهوم "الثقافة الإسلامية" في هذا السياق يكون المقصود هو الإسلام نفسه. يقرر مايكل ليند هذا المعنى بعبارة صريحة بالقول إنه بعد أن "كمن في وضع دفاعي لمدة ثلاثة قرون، وتحديدا منذ فشل العثمانيين في حصارهم لفيينا 1683، يعاود الإسلام الهجوم من جديد للتوسع على حساب الغرب، ولكن هذه المرة من خلال تكنيكات جديدة، تسعى لتغيير المجتمعات الغربية من داخلها، عبر التأثير على منظومة قيمها، ومن خارجها عبر شن حرب استنزاف بعرض العالم لإقناع الغربيين باستحالة هزيمة الإسلام أو القضاء عليه"[1].

والحل الذي يقدمه ليند لمواجهة هذا "الخطر" يكمن في تحقيق نوع من "النقاء الثقافي"، والانغلاق في وجه كافة الثقافات التي تهدد كيان

(1) William S. Lind, Understanding Fourth Generation War. Small Wars Journal, September 2004.

الدولة والمجتمع في الغرب وعلى رأسها الثقافة الإسلامية، ووضع حد لظاهرة التعددية الثقافية التي "تعاني" منها معظم الدول الغربية.

وبخلاف الانغلاق الثقافي في الداخل يتوجه منظرو حروب الجيل الرابع بعدد من النصائح إلى صناع القرار في الولايات المتحدة والعالم الغربي، يأتي على رأسها ضرورة إيجاد همزة وصل مع المواطنين المحليين، وذلك في الحالات التي تتضمن تدخلًا عسكريًّا في بلدانهم، بأن تكون الحملات العسكرية مصحوبة باستراتيجيات لكسب العقول والقلوب، وتقليل التعويل على الأنظمة الرسمية التي تتآكل شرعيتها، ويحذرون في المقابل من أن استخدام القوة الصريحة ضد المدنيين، سوف يدفع بالمزيد منهم إلى الارتماء في أحضان الجماعات المقاتلة. كما أن التدخل العنيف عادة ما يسهم في تدمير الدول التي تتعرض لهذا النوع من التدخل، وهو ما يصب في مصلحة الجماعات غير الرسمية بطريقة مباشرة؛ حيث يساعدها على حشد قوتها ويكسبها المزيد من الشرعية في مقاومة القوات الغازية[1].

(1) Max Boot، A How -To Manual: A Century of Small Wars Shows They Can Be Won، New York Times، 6 July 2003. Posted on the Council of Foreign Relations web site، at: http://www.cfr.org/iraq/ - -manual -century -small -wars -shows -they -can -won/p6101

ويؤكد هؤلاء على أنه حتى لو ترتب على ذلك النهج خسائر بالمفهوم التقليدي، كأن يفسر مسلك القوى الكبرى في هذه الحالة على أنه انسحابي أو تهادني أو حتى متخاذل، فإن النتائج على المستوى الاستراتيجي أو على المدى البعيد تبرر التمسك به، خاصة وأن ميزان القوة - في إطار حروب الجيل الرابع - ليس في صالح الدول الكبرى كما هو متصوَر، فهو لا يتحدد على أساس ما تمتلكه الدول من قوة النيران فقط، ولكن على أساس مقدرتها على تحديد النتيجة النهائية للمواجهة[1].

وفي حال ما اضطرت الدول الكبرى إلى التدخل في نزاعات عسكرية من هذا النوع، فلابد من أن يسبق ذلك القيام بمناورات تدريبية مشتركة في بيئات مشابهة لبيئة الحرب التي يفرضها هذا النمط من الحروب، كما توصي النظرية بإعادة التأكيد على المناورات باستخدام القوات الخفيفة، فحروب الجيل الرابع لا يمكن حسمها باستخدام الطائرات أو المدرعات أو أسلحة الدمار الشامل. ويلمح هؤلاء إلى أن أحد أسباب فشل القوات الأمريكية في تحقيق نصر حاسم في أفغانستان يرجع لعدم استيعاب هذه القوات للمفاهيم الجديدة للحروب، وإصرارها على مواجهة الجماعات غير النظامية بقوة النيران الهائلة والضربات الجوية، وذلك وفقًا لمفاهيم الحرب التقليدية القائمة على التقدم على الأرض[2].

(1) Ibid.

(2) Russell W. Glenn، Randall Steeb and John Matsumura، Corralling the Trojan Horse: A Proposal for Improving U.S. Urban Operations

كما ينصح مطورو النظرية بالاعتماد على العناصر المحلية وتدريبها وإعادة تجهيز المؤسسات العسكرية الداخلية (في الدول المستهدفة) وتوفير المعدات العسكرية لها[1]. وفي حال عدم كفاية العناصر المحلية يتم اللجوء إلى استراتيجية العمليات المشتركة والاشتباكات المباشرة، التي تتضمن وحدات صغيرة العدد خفيفة التسليح، سريعة الحركة، وتجنب قوة النيران الثقيلة، وحروب الاستنزاف الطويلة، والقصف طويل المدى[2].

Preparedness in the Period 2000 -2025، Santa Monica، CA: Rand Corporation، 08 June 2001.

(1) Ibid.

(2) Robert M. Cassidy، Why Great Powers Fight Small Wars Badly. Military Review، September - October 2002، pp. 41:53.

(3)

نظرية واحدة وروايات متنوعة

على الرغم من أنها نشأت داخل مراكز الأبحاث الأمريكية، لتفسير وتبرير الصعوبات التي تواجهها القوات الأمريكية وحلفاؤها في مواجهة الحركات المقاومة (التي يصفونها بالإرهابية)، إلا أن النظام المصري شرع في استخدام نفس النظرية (في أعقاب 2013/ 7/ 3) لأغراض مختلفة، وصلت في تعارضها مع المقولات الأصلية إلى حد إلصاق تهمة التسبب في ظهور هذا النمط من الحروب بالإدارة الأمريكية نفسها، وذلك بزعم رغبة الأخيرة في تفكيك الدولة وإفشالها كمقدمة لإحكام السيطرة عليها وعلى المنطقة ككل.

بشكل عام لا تختلف الرواية المصرية مع الرواية الأمريكية حول توصيف طبيعة حروب الجيل الرابع من حيث كونها حروبًا غير نمطية، تعتمد على المعلوماتية والقوى الناعمة، ومن حيث كونها حروبًا طويلة المدى، تنشب بين الدول وبين جماعات (من غير الدول) صغيرة الحجم، مرنة التنظيم، محدودة الإمكانيات البشرية والمادية، تستخدم تكتيكات حروب العصابات لتحقيق أهدافها.

ما تختلف فيه الرواية المصرية عن الرواية الأمريكية يتعلق بالفاعل الرئيسي والهدف النهائي لهذه الحروب، فإذا كان الفاعل وفقًا للرواية الأمريكية هو الجماعات المتمردة التي لا تلتزم الطرق التقليدية في القتال، ولا تعترف بشرعية الدولة كتنظيم سياسي، وتهدد الهيمنة الغربية المسيحية على العالم، فإن الرواية المصرية تفترض أن الفاعل الأساسي في إطار حروب الجيل الرابع هو الدول والأنظمة العالمية الكبرى (وعلى رأسها أمريكا)، وذلك في إطار سعي الأخيرة لنشر الفوضى وزعزعة الاستقرار في المنطقة، بحيث تستمر في زعامتها للعالم من دون معوقات، ومن دون أن تضطر لخوض حروب فعلية. صحيح أن هذه الأطراف الدولية وفقًا للرواية المصرية تستخدم وتوظف الجماعات المسلحة والحركات الثورية والجماعات الفوضوية، (فيما يمثل تقاطعًا مع الرواية الأمريكية)، ولكن هذه لا تعدو أن تكون مجرد أدوات في أيدي آخرين، وليسوا فاعلين أصليين كما تفترض الرواية الأمريكية.

ويتسع تعبير "الأطراف الدولية" الذي تستخدمه الرواية المصرية ليصبح بمثابة "لافتة عريضة" تضم تحتها كل من يمكن تخيلهم من القوى الدولية، فواحد ممن يوصفون بـ"الخبراء الاستراتيجيين" المصريين اعتبر أن مصر في حالة حرب حقيقية مع كل من "الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة وتركيا وقطر وإسرائيل وإيران"، معتبرًا أن ثمة خيطًا دقيقًا يربط بين كل هذه الكيانات، وأن ثمة هدفًا نهائيًّا يجمعهم

يتمثل في نشر الفوضى الإقليمية، عبر تنظيمات وسيطة (تضم جماعة الإخوان، حماس، حزب الله، داعش، وغيرها من التنظيمات الإرهابية على حد قوله)[1].

وتفترض الرواية المصرية أن حروب الجيل الرابع تمر عبر ثلاث مراحل رئيسية؛ الأولى هي زعزعة استقرار الدولة المستهدفة، والمرحلة الثانية إفشالها، وأخيرًا تفكيكها وتقسيمها، وخلق واقع جديد على الأرض يخدم مصالح الأنظمة المتدخلة[2]. وتذهب الرواية المصرية أن هذا النوع من الحروب تم تطبيقه بنجاح في العديد من الحالات مثل السودان وسوريا والعراق فضلًا عن أفغانستان زمن الاحتلال السوفيتي؛ حيث تم تصوير المقاومة وقتها على أنها نوع من الجهاد ضد المحتل السوفيتي بمساعدة الولايات المتحدة، بينما كان الأمر في حقيقته عبارة عن خطة أمريكية لتحطيم الاتحاد السوفيتي، وإعداد جيل من الجهاديين لنشرهم في كل أنحاء العالم، واستغلالهم في الحروب الأمريكية التالية على العالم العربي

---

(1) حمدي بخيت، لقاء على قناة التحرير، على الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=siBwPNk6ujQ

(2) انظر: عماد حجاب، الأهرام.. تكشف مخططات الإخوان في استخدام حروب الجيل الرابع لإثارة الفوضى وإنهاك المجتمع بالمظاهرات ونشر الشائعات والحرب النفسية لهدم مؤسسات الدولة، الأهرام، 25 نوفمبر 2014، على الرابط: http://www.ahram.org.eg/NewsQ/341738.aspx

والإسلامي[1]. وهو ما يجري – وفقًا للرواية المصرية – أمر مشابه له الآن من خلال الدفع بتنظيم داعش في سوريا والعراق ودعمه سرًّا للضغط على الأنظمة في المنطقة[2].

أما عن الوسائل التي تستخدمها أمريكا وحلفاؤها لتنفيذ هذا المخطط – وفقًا للرواية المصرية – فتشمل "الميديا الجديدة" مثل وسائل التواصل الاجتماعي والإعلام الفضائي والإلكتروني، ومؤسسات المجتمع المدني، كما تُستخدم في إطار هذا النوع من الحروب الآليات النفسية مثل بث الشائعات، ونشر مشاعر الإحباط والغضب على نطاق واسع، واستثارة الأقليات، وإثارة الحساسيات العرقية والدينية، وتعبئة الشباب بأفكار سلبية ضد الدول العربية ومؤسساتها، ونشر البلبلة والتشكيك في المشروعات القومية، كما يتم توظيف الورقة الدينية من خلال إشعال حروب الفتاوى، فضلًا عن استخدام العملاء من النشطاء السياسيين[3].

(1) انظر: طارق الشيخ، روسيا والصين في مواجهة حروب الثورات الملونة، الأهرام، 13 يونيو 2015، على الرابط: http://www.ahram.org.eg/NewsQ/405595.aspx

(2) المرجع السابق.

(3) انظر على سبيل المثال: محمد مجدي، عسكريون: الجيل الرابع من الحروب يدمر الدول ذاتيًّا بالفتن والشائعات، جريدة الوطن المصرية، 23 فبراير 2015 على الرابط: http://www.elwatannews.com/news/details/669772

وانظر أيضًا: شيماء فرج، الشائعات من حروب الجيل الرابع وتنتشر كالنار في

كما تركز الرواية المصرية على الدور الذي تلعبه الأدوات السياسية في إطار هذه الحروب، معتبرة أن المظاهرات والمسيرات والإضرابات تكنيكات في إطار الجيل الرابع من الحروب.

وتفترض الرواية المصرية أن الهدف النهائي من وراء هذا النمط من الحروب هو التقسيم الداخلي للدول المستهدَفة، وتفكيكها وإفشالها، وتدعو من ثم المواطنين إلى التكتل خلف قياداتهم السياسية لكسر وإفشال هذه السيناريوهات عبر التصدي لممثليها في الداخل وعلى رأسهم جماعة الإخوان وما يتفرع عنها من تنظيمات "إرهابية" أخرى في الخارج[1].

وفي إطار هذه السردية اعتُبِرت ثورات الربيع العربي البوابة التي تم من خلالها تسريب هذا المخطط[2]، فمن خلال إسقاط حكام المنطقة، وخلق جيل جديد من الحكام من الإسلاميين، أصبحت الأمور مرشحة للفوضى؛ حيث فقد الناس ثقتهم في هؤلاء الحكام، ومن ثم توالت

الهشيم، جريدة الدستور، 13 أغسطس 2015، على الرابط: http://www.dostor.org/872169

(1) انظر على سبيل المثال: لواء أ. ح. محمد الشهاوي، الأمن القومي وحروب الجيل الرابع، المصري اليوم، 13 نوفمبر 2014. على الرابط: http://www.almasryalyoum.com/news/details/571509

(2) إلى حد أن وصفها البعض بثورات الربيع العبري وليس العربي، انظر: علي محمود، الإعلام وحروب الجيل الرابع (4)، البوابة، على الرابط: http://www.albawabhnews.com/1347340

الأزمات السياسية، ووصلت حالة الاحتقان ذروتها. وهكذا فإن المؤامرة كانت "أمريكية التخطيط، محلية التنفيذ"[1].

وقد لخصت سلسلة وثائقية أذاعها التلفزيون المصري الرسمي (على قناتيه الأولى والفضائية) هذه الرؤية على نحو تفصيلي[2]، باستخدام عناوين من نوعية "المؤامرة الشيطانية"، "الأيدي الخبيثة"، "قطار الربيع العربي والسائق الخفي". واستخدم معدُّوا هذه السلسلة ديباجة تتحدث عن رغبة قوى الهيمنة العالمية عبر التاريخ في السيطرة على هذه المنطقة من العالم، ووضعوا الأحداث التي شهدتها البلاد منذ نشوب ثورات الربيع العربي في إطار من الملاحم التاريخية، مفترضين أن المنطقة تخضع حاليًا لهجمات مشابهة لما تعرضت له من قبل على يد الهكسوس والفرس والرومان والمغول والصليبيين وقوى الاستعمار الحديث، وافترض معدو الحلقات أن مصير المنطقة رهن بيد مصر، إذ "لم تتمكن قوى الشر العالمية في الماضي من بسط سيطرتها على المنطقة إلا عندما كانت مصر في أضعف أحوالها"، ولكن متى استردت وعيها واستيقظت، توقفت المؤامرات واندحر الأعداء.

(1) وليد حسنين، حروب الجيل الرابع والشرق الأوسط الجديد، العملاء والضحايا، مجلة الإذاعة والتليفزيون، 25 أغسطس 2015، على الرابط: http: / /maspiro. net /files /9293 -2013 -09 -17 -02 -11 -31.html

(2) بدأ عرض الجزء الأول منها الاثنين الموافق 25 نوفمبر 2013، والحلقات متاحة على الرابط: https: / /www.youtube.com /channel / UColBpZkF8IHhAtbuMcMGL_A

الخيط الناظم لهذه السردية يتمثل في ذلك التصور الشمولي للتاريخ، والذي يرويه بوصفه قصة واحدة كبرى، في إطار من الإحساس المتضخم بالقومية، التي تبالغ في تصور حجم التأثير الذي يمكن أن تمارسه دولة واحدة في إطار التاريخ العالمي. ففي إطار هذا الطرح تم تصوير مصر على أنها الدولة المقدّر لها دحر قوى الشر وإعادة مسار التاريخ إلى وضعه الصحيح. فهي قادرة على إلهام جيرانها من العرب والعالم قيم الحق والخير، ومساعدتهم في التغلب على المؤامرة الشيطانية ضد الحضارة والمدنية.

أما عن عناصر هذه المؤامرة فمتعددة إذ تشمل: الماسونيين من أصحاب الخطط السرية للسيطرة على العالم، ومنظري الحرب الكبرى لإسقاط كل الأديان، وعبدة الشيطان، والنورانيين الساعين إلى تكوين الحكومة العالمية، كما تتنوع أسماء أبطال محور الشر المتآمرين إذ تشمل كل من نيتشه، وهتلر، وكيسنجر، وبرنارد لويس، وكذا تتعدد المذاهب السياسية والأيديولوجيات، لتضم كلًّا من الفاشية والنازية والشيوعية.

استخدم معدو السلسلة حبكة ضعيفة الإحكام للربط بين كافة هذه المفردات والعناصر، فالماسونية العالمية خططت للإطاحة بحكم القياصرة في روسيا تمهيدًا للشيوعية، التي أنيط بها تحطيم الحكومات والمعتقدات الروحية، ثم جرى التخطيط على نحو ما للحرب العالمية الثانية للقضاء على النازية وتمكين الصهيونية، وبنفس الطريقة الغامضة تم التخطيط للحرب الكونية الثالثة التي عرفت بالحرب الباردة، والتي مكنت المارد الأحمر من

الصعود، قبل أن يتم تصويره كخطر على العالم الغربي، وعند نقطة معينة تم تحجيم المارد الأحمر خوفًا من انضمام دول جديدة له، وكان رجل هذه الخطوة هو جورباتشوف. وأخيرًا تحققت للغرب الهيمنة الصريحة، بخروج أمريكا من عزلتها وقيادتها للعالم، ولتنفيذ هذا الغرض تم إنشاء "منظمة الثقافة العالمية الحرة"، التي تقوم على تعديل القيم الأخلاقية والثقافية وتغيير السلوك ونشر قيم السوق الاستهلاكي، ونشر الفنون والآداب الغربية لاختراق الشعوب، وقد ضمت منظمة الثقافة العالمية في عضويتها - وفقًا للسلسلة الوثائقية - كلًا من هنري كيسنجر، ورونالد ريجان، وبرتراند راسل!

وتفترض النظرية أنه بعد تراجع الهجمة الاستعمارية العالمية، انتقلت الدول الاستعمارية إلى آليات جديدة للسيطرة على الدول ذات الموارد المادية والاستراتيجية وفي مقدمتها الدول العربية، وتستعرض الحلقات في هذا الإطار "الوثيقة الخطيرة" المنسوبة إلى المستشرق برنارد لويس لتفتيت العالم العربي إلى دويلات على أسس الدين والعرق، وتقسيم مصر إلى خمس دويلات، وجعل إسرائيل هي السيد المطاع، كما تفضح الحلقات المتعاونين مع لويس مثل صامويل هانتنجتون وفرانسيس فوكوياما ورجب طيب أردوغان[1]، ودولة قطر وقناة الجزيرة.

(1) يوصف رجب طيب أردوغان من قبل الإعلام الرسمي أنه ذراع أمريكا الأيمن في المنطقة، والمكلَّف بوضع مشروع الشرق الأوسط الكبير موضع التنفيذ، وذهب البعض إلى أنه حظي بالحصول من الولايات المتحدة على الخريط السرية لتقسيم المنطقة. انظر: علي محمود، الإعلام وحروب الجيل الرابع (4)، البوابة، 14 يونيو 2015، على الرابط http: / /www.albawabhnews.com /1347340

أما عن أدوات المؤامرة فمتعددة؛ فهناك الإنترنت واليوتيوب الذي يمثل الإعلام الجديد، وهناك أيضًا القائمون على مواقع التواصل الاجتماعي، القادرون على حشد الشباب، وهناك مؤسسات المجتمع المدني: وفي مقدمتها المعهد الديموقراطي، المعهد الجمهوري، معهد كارنيجي، فريدوم هاوس، وغيرها. ولا تنسى الحلقات أن تشير على استحياء إلى دور الأنظمة العربية المستبدة التي ساهمت في تردي الأوضاع المعيشية، وانتشار البطالة والجهل وقمع الحريات، وهو ما أدى إلى سقوط بعضها مثل أنظمة ليبيا واليمن.

وفي محاولتها الإجابة عن سؤال: هل "كان وراء الثورات أشخاص طبيعيون أو جهات ما؟" تفترض الحلقات أن مواقع التواصل الاجتماعي كانت إحدى أدوات الحرب النفسية التي أدت لنشوب مثل هذه الثورات. وتخص بالذكر صفحة "كلنا خالد سعيد" التي لعبت دورًا كبيرًا في الحشد والترويج لثورة يناير، مع التأكيد على أن أحد أفراد جماعة الإخوان كان هو المؤسس لهذه الصفحة، كما تشير لموقع رصد، الذي تصفه بأنه مارس كل أنواع التضليل، واستخدم لقطات مفبركة لقتلى وجرحى ومصابين من اليمن وغزة والمغرب، لتهييج الجمهور، ومحاولة شيطنة أجهزة الدولة، والإيقاع بين الدولة والشعب.

مقارنة الرواية المصرية لحروب الجيل الرابع مع الرواية الأمريكية

للوهلة الأولى يبدو أن تشويهًا كاملًا مارسته الرواية المصرية لنظرية "حروب الجيل الرابع"، فقد عكست مقولاتها الأساسية، وجعلت من الدول الكبرى مستفيدًا من نشر الفوضى وليس ضحية لها

كما في الرواية الأمريكية. ومن الأمور اللافتة أن الخطاب الإعلامي المصري يستعين في هذا الصدد بمحاضرة شهيرة للبروفسور الأمريكي ماكس مايوراينج ألقاها في معهد الأمن القومي الإسرائيلي محذرًا فيها من امتداد أثر حروب الجيل الرابع إلى الولايات المتحدة وإسرائيل، ليصور (أي الإعلام المصري) هذه المحاضرة على أنها شرح للطريقة "الخفية" لكل من الولايات المتحدة وإسرائيل في السيطرة على العالم وعلى المنطقة[1].

ورغم هذا التباين الكامل فإن هناك عناصر تتقاطع فيها الروايتان:

نقطة التقاطع الأولى تتمثل في انطلاق كلتا الروايتين من محاولة لتبرير الفشل وعدم إمكانية التنبؤ به أو التعامل مع نتائجه. فعلت هذا الرواية الأمريكية لتبرير عجزها عن المواجهة والتصدي لأزمات كان يُفترض بفعل فارق القوة أن تكون محسومة لصالح الطرف الأمريكي، مثل توقع ودرء أحداث 11 سبتمبر، ومثل التغلب على حركة طالبان وتنظيم القاعدة، ومثل عجزها عن تزويد حلفائها بالمعلومات والقدرات التي تمكنهم من مواجهة أطراف أضعف، مثل فشلها في حماية إسرائيل من ضربات

(1) محمد بغدادي، الغرب يدير حروب الشرق الأوسط بالريموت كنترول، الأهرام المصرية، 8 أغسطس 2014.

وانظر: حسين خلف موسى، الجيل الرابع من الحروب بين التنظير والتطبيق العملي في دول العالم العربي، المركز الديموقراطي العربي، على الرابط: http: // democraticac.de /?p=16881

المقاومة الفلسطينية وتنظيم "حزب الله" الشيعي رغم أساليبهما البدائية وقدراتهما المحدودة[1].

وفعل هذا الجانب المصري حين وظَّف النظرية لنفس الأسباب، أي لتبرير قصوره عن مواجهة ما يسميه "الإرهاب". فالنظرية وفقًا للرواية المصرية تصوِّر العدو (الإرهاب) على أنه ذو قدرات استثنائية، فهو يستخدم تقنيات الحرب الذكية والحرب النفسية وحرب العصابات وحرب المعلومات، وأي نمط آخر من التقنيات غير النظامية، التي لا يمكن توقعها أو التعامل معها[2]. وليس خافيًا أن تصوير "العدو" بهذه الصورة الخارقة يحمل تبريرًا ضمنيًّا للعجز عن القضاء عليه أو هزيمته!

نقطة التقاطع الثانية تتمثل في "تبرير الاستخدام المفرط للعنف"، ففي إطار حروب الجيل الرابع، وبفعل الطبيعة الشريرة للعدو وأعوانه، تطرح نظرية حروب الجيل الرابع كمسوغ لإقناع الرأي العام (الداخلي والدولي)

(1) George Emile، Irani Irregular Warfare and Non -State Combatants: Israel and Hezbollah. Comment، October 2007، at: http://www.comw.org/rma/fulltext/0710irani.pdf

(2) انظر على سبيل المثال: أحمد الطحاوي – دعاء سامي – بهاء المهدي، GW4، حروب يعجز إبليس عن مواجهتها، إسقاط الدولة لنفسها، أحدث حيل الجيل الرابع الشيطانية، الأخبار المصرية، 5/ 7/ 2015.
وانظر: وجدي زين الدين، حروب الجيل الرابع، الوفد، 13 يوليو 2015، على الرابط: http: / /alwafd.org /essay /868

بضرورة وعدالة الاستخدام المفرط للقوة، وسقوط أعداد كبيرة من الضحايا (من المدنيين). فعلت هذا الإدارة الأمريكية وهي تواجه المقاومة العراقية والأفغانية عبر استخدامها للقوة غير المتكافئة، وفعله أيضًا النظام المصري، وهو يواجه القوى المعارضة لترتيبات 2013/ 7/ 3. توظيف نظرية "حروب الجيل الرابع" أعطى مسوغًا لكلا الطرفين للمبالغة في استخدام العنف بكافة صوره، على اعتبار أن الطبيعة الخاصة للعدو بوصفه عدوًا وجوديًّا تبرر مثل هذا العنف وتضفي عليه شرعية وقبولًا لدى العامة، الذين ربما طالبوا بالمزيد من العنف، لحسم هذه الحرب التي تتهدد وجودهم وأوطانهم.

"البعد التآمري" أيضًا يبدو كامنًا في كلا الروايتين؛ فالطرف الأمريكي يتحدث عن مؤامرة إسلامية بعرض العالم، لاستعادة أمجاد الخلافة، وهزيمة الغرب المسيحي، من خلال هدم شرعية الأنظمة السياسية الموجودة حاليًا، وبناء شرعية جديدة قائمة على توحيد المسلمين في إطار كيان سياسي جديد. الرواية المصرية تتبنى أيضًا التفسير التآمري وتتفق مع أصحاب الرواية الأولى في مقولاتها حول الخطر الإسلامي وخوفها من مشاريع الوحدة الإسلامية، ولكنها لا تتوجه بمخاوفها هذه للداخل، بقدر ما تتوجه بها للخارج (الذي يفترض أصحاب هذه النظرية أنه منبع هذه التهديدات!). فالداخل المسلم لا يناسبه "في الغالب" حديث التحذير من الخطر الإسلامي وعودة الخلافة، ولكن يناسبه أكثر التحذير من خطر تفكك الدولة والقضاء على ريادتها وأهميتها.. الخ.

إذًا، الحديث عن المؤامرة موجود عند الطرفين، وبه تقاطعات ولكنه غير متطابق، فالطرف المصري يتهم الطرف الأمريكي بأنه ضالع في المؤامرة التي تتهدده، فيما الطرف الأمريكي يُحمِّل الأنظمة السياسية للدول العربية (ومن بينها النظام المصري بطبيعة الحال) قدرًا كبيرًا من المسؤولية عن ظهور الجماعات المتمردة التي تهدد مصالحه في المنطقة.

ولكن مؤخرًا بدأت لهجة الاتهام تخفت وربما تزول تمامًا، واستعادت الأطراف مواقفها التقليدية، وحدث نوع من التناغم في المصالح بين النظام المصري والولايات المتحدة. فبعد فاصل من الاتهامات التي وجهها الأول للثانية بالتسبب في فوضى الشرق الأوسط، والرغبة في اقتطاع أجزاء من أقاليمه، وإرهاق دوله وتمزيقها، إذًا بالعلاقات تتحسن وتنتظم لتصبح أفضل مما كانت عليه قبل نشوب ثورات الربيع العربي، فالمساعدات يتم استئنافها، والسفراء يرجعون إلى ممارسة أعمالهم الطبيعية، والوفود الرسمية تتحرك بسلاسة، وكأن شيئًا لم يعكر صفو العلاقة بين الطرفين.

ويمكن تفسير هذا التقارب بتعويل الولايات المتحدة على حلفائها الإقليميين لمواجهة هذا النوع من الحروب، فهذه الأنظمة بحكم التعريف، أقدر على تنفيذ حزمة التوصيات التي يقترحها منظرو حروب الجيل الرابع، فيما تظل الاستراتيجية الحربية الأمريكية حريصة على عدم التورط في المباشر في أزمات المنطقة والاحتفاظ بأقل خسائر في مواجهاتها.

وبعد،،،

مع تفجر ثورات الربيع العربي، بدأت أحاديث المؤامرة، واليد الخفية، والفوضى الخلاقة، وحروب الجيل الرابع، تتردد على استحياء في أروقة الأنظمة العربية، وكانت الحجة المتكررة بين منظري هذه الأنظمة أن الثورات ما هي إلا ترجمة لمؤامرة الفوضى المراد إغراق بلدان العالم العربي فيها لتفكيكها وتدميرها.

وكان السؤال الذي يثور بمناسبة هذا التحليل هو: ما الذي تمثله الدول العربية من تحدٍ للغرب، لكي يلجأ إلى تفكيكها عبر نشر ثورات الربيع العربي بها، هل أنظمتها (المعتدلة) تهدد أمنه أو مصالحه، أو أمن ومصالح ربيبته إسرائيل على نحو جدِّيٍّ؟ ولما كانت الإجابة عن هذه الأسئلة هي النفي، كان استمرار الحديث عن المخطط الخارجي للتفكيك يثير علامات استفهام إزاء هذا المنطق المتمسك بفكرة تآمر العالم على منطقة تمتلك فعليًّا كل مقومات الضعف.

وعلى العكس من هذا المنطق بدت الثورات كمحاولة تكاملية على المستوى الشعبي في إطار أوطان ينخر فيها التفكك على المستوى الرسمي، وكمحاولة لتخليص المنطقة من مظاهر الاستقرار الزائف (القائم على الحفاظ على الوضع الراهن)، وصولًا إلى استقرار جديد تكمن عوامل رسوخه في التكامل الطوعي للأفراد والشعوب.

لهذا كان من المفترض أن يُنظَر إلى الثورات على أنها تمثل تحديًا للغرب؛ فهي تُفقِده حلفاءه، وتهدد مصالحه، وفي هذا ما يفترض أن يدفعه إلى محاربتها ومحاولة وأدها، لا تشجيعها ورعايتها. ولكن خطاب المؤامرة كان يقلب هذه البداهات، ويصر على أن الثورات ما هي إلا تجلٍّ من تجليات الجيل الرابع من الحروب. وقد نجح هذا الخطاب في أن يؤسس لثورات مضادة استعادت أوضاع ما قبل الربيع العربي في عدد من الدول، وأقامت شرعيتها على أساس من مقولات محاربة الفوضى والتفكيك.

ما لم يلتفت إليه مرددو مثل هذه الكليشيهات هو أن المنطقة لم تتمتع منذ استقلال دولها عن الاستعمار الغربي بأي تكامل حقيقي، ولم تكن آمنة من التفكك في أي مرحلة من مراحل تاريخها الحديث، وإنما كان تماسكها مفروضًا على نحو قسري، من قِبل أنظمة تولت الحكم في أعقاب الاستقلال، ولم تستطِع تجاوز العقبات والتحديات التي خلقها الاستعمار بقدر ما مثَّلت بشكل أو بآخر مظهرًا من مظاهر استمرارها.

ومن هنا فإن نسبة «الفوضى» إلى الثورات تبدو نسبة ملفقة، كما أن القول بأن الأزمات الحالية هي في مجملها صناعة خارجية يحمل تبرئة لا تستحقها أنظمة المنطقة، خاصة أنها منذ تسلمت الحكم وهي ترعى ميراث التقسيم الذي ورثته عن الاستعمار، وأسهمت من جانبها في بلورة عدد من المشاكل التي ربما لم تكن بهذه الحدة في زمن الاستعمار نفسه.

أما فيما يتعلق بتقييم النظرية وفقًا لروايتها الأصلية، فإنها وعلى الرغم مما تعانيه من مشاكل، إلا أنها تلفت الانتباه إلى نقاط مهمة، أبرزها تصاعد درجة "الفوضى" في إطار ما يوصف بـ"النظام" العالمي الحالي، وتدق ناقوس تحذير بخصوص فشل الطرق التقليدية للتخطيط الإستراتيجي في التعامل مع أزمات الواقع الجديد، واختلاف مفهوم الحرب، أو بالأحرى تعقده[1].

فالحرب المعاصرة لم تعد مجرد قرار تأخذه الدولة أو النظام السياسي، وإنما أصبح بمقدور الأفراد وبمساعدة وسائل التواصل الحديثة شن هجمات ذات فاعلية معتبرة. المعادلة الآن تجعل من الأفراد خصمًا حقيقيًّا في مواجهة الدول، بحيث لم يعد من المثير للدهشة أن يظهر على شبكة المعلومات الدولية كتيبات بعنوان "دليل المبتدئين في مواجهة الصواريخ الذكية" أو دراسات مجهولة المصدر عن طرق "مهاجمة الأهداف الاستراتيجية".

(1) من نماذج الدراسات التي تناقش التعقد في ظاهرة الحرب، وعلاقة ذلك بانبثاق مفهوم حروب الجيل الرابع، انظر:

Michael F. Beech, Observing Al Qaeda Through The Lens of Complexity Theory: Recommendations For The National Strategy to Defeat Terrorism, USAWC Strategy Research Project, U.S. Army War College Carlisle Barracks, Pennsylvania, 19 March 2004.

وفي هذا الإطار ليس من الضروري أن تعاد 9/ 11 بحذافيرها، ولكن ربما عن طريق هجمات على نطاق أضيق، مثل تلك التي تستهدف أنابيب نقل النفط، أو المواقع الإلكترونية.

هذه النقاط تبدو غائبة عن معظم من يحذرون في إطار "النسخة المصرية" من هذه الحروب، ممن يتصورون إمكانية مواجهة ما ترصده النظرية من تعقد في ظاهرة الحرب بالحديث عن المؤامرة السرية التي يمكن كشفها وإحباط مساعي القائمين بها، في إطار توظيف سياسي يروج لإمكانات "النظام الحالي" ويحاول تصويره بصورة القادر على التصدي لحركة التاريخ ومحاربة العالم المتآمر به من كل صوب!

الجزء الثاني

اتجاهات الرأي والنقاش

د. ناهد عز الدين:

1. قد يكون من المهم النظر إلى ما يصدِّره الأمريكيون إلينا (كدول تابعة) من قضايا ومواقف (مثل أنهم منزعجون من هذا النوع من الحروب بوصفها خطر داهم) باعتباره يتم ضمن عملية "إسقاط" تستهدف أن نرى العالم على النحو الذي يريدوننا أن نراه عليه، على نحو ما فعل صامويل هانتنجتون حين قدم وصدّر لنا أطروحة (صدام الحضارات)، لنتبناها ونرى العالم من خلالها.

2. من المهم الانتباه إلى طبيعة التناول الأمريكي لمصادر عدم الاستقرار داخل دولنا. ففي الوقت الذي تدق فيه أمريكا أجراس الخطر من الجماعات الإسلامية داخل الدول (بوصفها مصادر لعدم الاستقرار)، نجدها تثير قضايا جماعات تصفها بأنها مضطهدة كالأقليات الدينية والسياسية، حتى لو بلغت مطالب هذه الجماعات حد الانفصال عن دولها الأم... وعلى هذا الأساس تم تفكيك السودان والصومال والعراق وغيرها.

3. أين موقع إسرائيل من هذه النظرية، التي يغلب عليها الطابع المؤامراتي، أخذًا في الاعتبار أن إسرائيل لم تهزم تقريبًا على يد جيوش نظامية بقدر ما ذاقت الهزيمة على يد الجماعات من غير الدول؛ مثل حزب الله الذي اضطرها للانسحاب من جنوب لبنان، وكذلك حماس في قطاع غزة. فهل يمكن أن نتصور أن رغبة إسرائيل في مواجهة هذه الجماعات غير النظامية هو ما يدفعها لتطوير مثل هذه النظريات (المؤامراتية) لبدء مرحلة جديدة من العدوان؟

4. ألا يتيح تطوير مثل هذه النظرية "الجيل الرابع من الحروب" للأنظمة أن تنحو منحى بوليسي في مواجهة قوى المعارضة السياسية، سواءً قوى تيار الإسلام السياسي، أو القوى الليبرالية، ألا تجعل هذه النظرية من أجهزة المخابرات القيادة العليا للمجال السياسي والعام بالنظر إلى أن كل المعارضة وفقًا لهذه النظرية تتحول إلى مجموعات محتملة من "الجواسيس"؟

5. ويرتبط بذلك السؤال حول مدى إمكانية استخدام الولايات المتحدة لهذه النظرية كغطاء لمدّها حلفائها من الأنظمة الاستبدادية بالأسلحة والمعلومات لضرب هذه القوى المعارضة والمناوءة لها ولحفائها في الوقت ذاته.

6. إلى أي مدى يمكن التفكير في أن الأمريكيين لديهم في دولنا من يروجون لمثل هذه النظريات من أكاديميين وإعلاميين وساسة ومثقفين، بما يوحي بأنها حقيقة علمية تم اكتشافها وعلى الناس أن يسلموا بها؟!

7. أخيرًا وعلى افتراض صحة النظرية، وأن المستقبل سيكون لهذا النوع من الحروب التي تُشن من قِبل "الجماعات من غير الدول"، فإن الملاحظ أن هذه الحروب هي حروب مفتوحة النهاية؛ لا يمكن لطرف ما أن ينتصر فيها، وعليه يصبح السؤال هو: أليس من الأفضل التفكير في مسارات مختلفة للتعامل معها (مبادرات لوقف العنف)، وذلك بدلًا من أن يظل الأمر مفتوح الجبهات والتصورات والخيارات.

د. هاني محمود:

السؤال التي تثيره هذه الأفكار هو: هل نظرية حروب الجيل الرابع خيالية متوهمة أم هي حقيقية ويتم توظيفها توظيفًا سلبيًّا في مواجهة المعارضة داخل الدول؟ وهل يدعم الوجود الظاهر للجماعات التي تقاوم الأنظمة، ما يردده البعض من حديث حول "حروب الجيل الرابع"؟

أ. أمجد جبريل:

1 - هل تمهد هذه النظرية لفكرة انسحاب الولايات المتحدة من المنطقة لصالح إعادة التوجه نحو آسيا أو غيرها؟

2 - من ناحية أخرى، هل "الفوضى" ضارة دائمًا؟ أعتقد أن بعض الفوضى قد يكون مفيدًا، وذلك من دون تماهي مع النظرية أو استدعاء لمقولة الفوضى الخلاقة أو غيرها. فما تتعرض له أنظمة المنطقة من هزات عنيفة قد توحي أن بلادنا تتعرض لخطر شديد، لكن التأمل فيما تقوم به بعض الأنظمة من أدوار في حماية الاستبداد والفساد والتبعية والتخلف والقمع...الخ، يجعل الرهان على أن تأتي الفوضى ببدايات جديدة نحو انعتاق المنطقة رهانًا معقولًا.

3 - أما بالنسبة لمستقبل المنطقة فيبدو أن شيئًا ما يُرتب لكي يتراجع المعتدلون ويتقدم المتشددون... في المدى القصير يرجح أن تكون إسرائيل وإيران المستفيدين من ذلك، أما في المدى المتوسط والبعيد فإن المقاومة

(الجهادية) ستكون أكبر المستفيدين. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو أين أخطأ الإسلاميون (المعتدلون)؟ هل هم لا يحسنون قراءة التاريخ، فيصدقون مثلًا أن أمريكا تدعم الديمقراطية، ويعولون على وقوفها معهم.

د. أماني غانم:

1 -تذكرنا هذه النظرية (حروب الجيل الرابع) بنظريات صدام الحضارات ونهاية التاريخ، وأرى أن الطريقة التي تثار بها هذه النظريات تستهدف حفز الغرب (الولايات المتحدة) ضد عدو جديد أو متجدد، حتى لا يركن إلى انتصارات الماضي. وبناءً عليه قد تكون هذه النظرية مجرد مرحلة من مراحل التفكير الواقعي الغربي.

2 -يجب التمييز بين كوْن النظرية منشِئة لواقع، وبين كونها كاشفة عن واقع، فثمة تمييز بين المستويين؛ ففي الأول توجه النظرية توصيات وتوجيهات للسياسة العملية، وفي الثاني تمارس السياسة على نحو يعزز النظرية.

3 -من الواضح أن ما يقدمه البعض عندنا ليس نسخة عربية من النظرية، وإنما عملية تصنيع لنظرية بديلة، ولعلم هؤلاء بأن المواطن لن يفتش وراءهم، استلبوا اسم هذه النظرية واستدعوا فيها ما يريدون ترويجه من حديث عن مؤامرة في قلبها الإسلاميون.

4 -السؤال هو إذا كانت النظرية توجه صانع القرار الأمريكي لعدم دعم أنظمة محكوم عليها بالفشل، وألا يتصالح مع الإسلاميين ومن على

شاكلتهم لأنهم خطر خاصة المسلحين منهم؟ فما البدائل الأخرى التي قدمتها النظرية لصانع القرار؟

5 –وأخيرًا ألفت الانتباه إلى التقاطع الواضح بين مقولات هذه النظرية وبين ما تثيره العولمة من حديث عن العودة إلى الهويات الأولية وخطر ذلك على الدولة القومية، وحديثها عن فشل دولة ما بعد الاستقلال في العالم الثالث وما يتصل بذلك من نشأة وصعود الإسلام السياسي!

د. شيرين فهمي:

1 –كيف نفسر التناقض بين ما تقوم به الأنظمة العربية من تعاون مع أمريكا في قضايا السلاح والتجارة وغيرها، وما توجهه من اتهامات للولايات المتحدة بخصوص تدبير مؤامرة ضدها مستخدمة الحركات الإسلامية لتقسيم البلاد.

2 –بالنسبة لما يسمى بتنظيم الدولة، هناك نقاش حول كونه صنيعة أمريكية أو غربية. لكن ما أراه هو أنه نشأ بفعل ظروف موضوعية، ولكن تم استخدامه وتوظيفه لاحقًا من قبل الأمريكان، بحيث يكون وقودًا لليمين المتطرف المعادي للمسلمين من ناحية، ومن ناحية أخرى يصرف نظر الشعوب العربية عن مساراتها الثورية. تمامًا كما انطلقت الثورات العربية من عوامل موضوعية، لكن تم توجيه سياقاتها بحيث تهدم نفسها وتصب في النهاية في خانة المصالح الأمريكية.

أ. فكري:

1 –هناك تقسيمات متنوعة لأجيال الحروب: فهناك الحروب التقليدية، وحروب العصابات، والحروب الاستباقية، وحروب الجيل الرابع، وهناك من يتحدث عن حروب الجيل الخامس أي الحروب بالوكالة، وهناك من يزيدون المراحل لأكثر من ذلك.

2 –بالنسبة لعلاقة الحركات أو القوى السياسية المختلفة بالولايات المتحدة، فمعلوم أن أمريكا لاعب أساسي، لا يمكن إلا أخذه في الاعتبار، مع ضرورة الوعي التام بأهدافها وأساليبها.

3 –فيما يتعلق بنشأة الجماعات المسلحة يمكن القول إنها وُلِدت كنتيجة للسياسات الأمريكية الظالمة في أفغانستان والعراق وفلسطين، فضلًا عن تأييد أمريكا للنظم المستبدة. الأمر اللافت أنه مع استمرار هذه السياسات الأمريكية المعيبة بدأت هذه القوى المسلحة تجد قبولًا واستحسانًا من قطاعات من الشباب عبر المنطقة.

د. نادية مصطفى:

1. تجب ملاحظة أن المعالجة المتسرعة لموضوع المحاضرة اليوم قد تصل إلى استنتاج يفيد تبرئة الأمريكيين من التآمر، أو أن المتحدث يريد أن يبرئ الإسلاميين مما يُتهمون به من التآمر مع الأمريكان، فبرّأ الأمريكان أنفسهم. لكن المعالجة الموضوعية والهادئة لا تصل لمثل هذه النتائج.

2. من المهم ألا تُطرح هذه النظرية على أنها تعبير عن رؤية الغرب للشرق، فنحن لا نتحدث عن "غرب" واحد، ولا عن رواية "غربية" واحدة للنظرية والواقع. ففي الغرب هناك سياقات أكاديمية، وإدارات ونظم رسمية، وثمت توجهات متعددة ومتنوعة، (اليمين المحافظ التقليدي وغير التقليدي، واليمين الصاعد والاتجاه الليبرالي ... الخ).

3. نفس الأمر عندما نتحدث عن الشرق، فهناك توجهات فكرية مختلفة فهناك الأنظمة المتكلسة، وهناك التيارات الإسلامية والليبرالية واليسارية، ولدينا – وهو الأهم – الشعوب، المستهدفة من الجميع بالاستقطاب والتأثير.

4. الحديث عن حروب الجيل الرابع وفق أدبيات التخطيط الاستراتيجي والثقافة الاستراتيجية الغربية، يشير إلى تطور أجيال الحروب في الخبرة الغربية وفق فلسفات الحداثة ومراحل نمو الدولة القومية على نحو ما شرح المتحدث. ففي إطار التفكير الاستراتيجي الغربي، جرت حروب نظامية (بين الجيوش الوطنية) تنافسًا على استعمار العالم، وطلبًا لاستمرار الهيمنة. وتطورت هذه الحروب بفعل التكنولوجيا، وأساليب إدارة الحرب، ونوعية القوى التي تقاتلها، وحسب طبيعة الأزمات، وطبيعة العقيدة القتالية. فالولايات المتحدة أثناء الحرب الباردة صاغت قدرتها العسكرية وفكرها الاستراتيجي على أساس من توقع حدوث حرب كبرى مع القطب المقابل (الاتحاد السوفيتي)، كما طور الناتو بعد انتهاء الحرب الباردة من تصوره للحرب وتركيبة الجيوش عبر العالم.

5. إذا كانت النظرية تتحدث عن تطور حروب واستراتيجيات الغرب العسكرية منذ نشأة الدولة – القومية 1648؛ أي منذ بدءوا هجمتهم الكبرى علينا، وبدأت عملية استعمار بلادنا وتقسيمها، فكيف تطورت استراتيجياتنا العسكرية عبر التاريخ الإسلامي منذ مراحل الفتوح ودول الخلافة وصولًا إلى الدولة العثمانية، والتي كانت تفوق القوى الأخرى تخطيًطا وتنفيذًا واستراتيجية؟ ولا يستهدف هذا السؤال البحث عن نظرية "حروب جيل رابع إسلامية"، ولكن يستهدف محاولة تفسير ما وصلنا إليه الآن! بعبارة أخرى هل ما وصلنا إليه من ظهور "جماعات مسلحة" و"تنظيمات عسكرية" من غير الدول هو مرحلة من مراحل تطور الاستراتيجية العسكرية في العالم الإسلامي في مواجهة الهجمة الغربية العسكرية الواسعة؟

6. لقد مررنا في القرون الأخيرة بعدة تطورات، حتى وصلنا إلى المرحلة الراهنة، التي يتضح فيها أن الأنظمة/ الجيوش الوطنية التي ورثت الاستعمار بعد الاستقلال قد أخفقت على عدة أصعدة، فهي لم تنجح في بناء دول قوية، ولم تحقق استقلالًا عن الخارج، ولم تُتِح حريات في الداخل. وهذه باختصار أبعاد أزمة الدولة – القومية لدينا، أو أزمة فشل أنظمة الحكم. وهنا يصبح السؤال هو: هل من الوارد أن تكون هذه التكوينات (من غير الدول) تطورًا بديلًا لنماذج مقاومة غير نظامية؟

7. كيف يمكن التصدي للخلط الحاصل بين المقاومة والإرهاب، وكيف يمكن إعادة الاعتبار لحركات المقاومة بوصفها استجابات طبيعية

لفشل الأنظمة المستبدة، التي تحولت من حامية للشعوب ومدافعة عن استقلالها ضد المشروع الصهيوني إلى أذرع للمشروع الأمريكي ووكيل له، حتى وصل بها الأمر بعد الثورات إلى قيامها بقتل شعوبها؟ وهل تصاعد المقاومة المسلحة في المرحلة الحالية يمكن التعامل معه على أنه رد فعل لإفشال الحراك السلمي، أم أنه تطور طبيعي نشأ في إطار التفاعل مع ما يجري حولنا وما يُفعَل بنا، من احتلال ثم مقاومة للاحتلال فاستقلال ثم مقاومة للهيمنة وللنظم المستبدة الحليفة للمستعمر؟

8. هل من مصلحة القوى الغربية أن تسقِط الأنظمة الحليفة لها وتفكك دولها، أم أن تستمر هذه الأنظمة الحليفة ودولها ولكن في أضعف أوضاعها (إما عبر تفكيكها كالعراق، أو تصفيتها كما في اليمن، أو عبر اقتتال داخلي كما في سوريا وليبيا). وفي هذا السياق يصبح من المشروع التساؤل حول الدور المناط بالجيش المصري إقليميًّا، خاصة وأنه من الملاحظ أنه محجِم عن التدخل في حالات (كما هو الحال في اليمن)، ومحجّم عن التدخل في حالات أخرى (كما في ليبيا). فما مرد هذه السيولة الإقليمية، وكيف تُقرأ في إطار المصالح الاستراتيجية للدول الكبرى؟

9. إن التغيرات المحيطة بنا تثير تحديات مختلفة؛ أهمها ضرورة استعادة الشعوب وعيها وإرادتها. فالفرصة مهيأة اليوم أمام الشعوب لكي تعي بوضوح ما يجري في بلدانها من استبداد وفساد وتهديدات (الفقر والقمع والتبعية). وأحد أبعاد هذا التحدي تتمثل في عدم الاستسلام

للتفكير المؤامراتي، واستعادة الثقة في النفس، خاصة وأن الاستسلام لفكرة كوننا دُمًى في يد الغرب يفعل بنا ما يشاء، أو لفكرة وجود تخطيط استراتيجي عالمي يوظف كل الأدوات ضدنا، أو لفكرة وجود اختراقات للدول والتنظيمات الإسلامية وغيرها، هذه الأفكار، وإن كان بعضها متحققًا بالفعل، إلا أن الاستسلام لها يشوش على قدرات الشعوب، ويسلبها فاعليتها، ويمنعها من التطلع إلى حريتها، التي لو استردتها لشكلت تحديًا حقيقيًّا للغرب، ووقفت حائط صد أمام تهديداته.

10. بخصوص ما طرحه البعض من وجود تناقض في مسلك النظم المستبدة حين تدعي أبواقها الإعلامية أن هناك مؤامرة على أمن الوطن والدولة والجيش لكي تعبئ الناس وراءها وتوجِد لنفسها ذرائع لقهر المعارضة السياسية بحجة الخطر الخارجي، وهي في نفس الوقت تقوم على استجداء هذا الخارجي وتطالبه أن يساعدها ضد الإرهاب. أشير إلى أن هذا لا يمثل تناقضًا، وإنما نوع من توزيع الأدوار بين الخارج وبين النظم المستبدة التي تحاول جاهدة أن تبقى في الحكم مدعية أنها تحارب الإرهاب أو التدخلات الخارجية لتقسيم المنطقة بينما الخارج هو الذي يحافظ على بقائها ولو إلى حين.

11. وقتها كانت النظم المستبدة متحالفة بقوة مع السياسات الرسمية للغرب، ورغم أن مبارك كانت لديه عدة مشكلات مع الأمريكيين، إلا أنه لم يتحدث هو أو وزراؤه مطلقًا عن وجود مؤامرة. الآن أصبح هناك جرأة

وتبجح في الحديث عن هذه المؤامرة المزعومة رغم أن التحالف بين الطرفين أضحى أقوى ضد الثورات.

12. بالنسبة لخريطة مواقف القوى السياسية قبل وبعد الثورات، نلاحظ أنه قبل اندلاع ثورات الربيع العربي كان الإسلاميون (مع القوميين واليساريين) يُتهمون بأنهم أصحاب خطاب "المؤامرة" ونظرية المؤامرة وأنهم أعداء الغرب؛ حيث كانوا يحذرون من العولمة الثقافية وأدواتها التي تريد طمس الهويات[1]، وحذرنا في هذا الصدد من مخاطر المخططات الأمريكية والغربية لتقسيم المنطقة[2]. في الوقت الذي كان فيه الليبراليون على وفاق تام مع الغرب، ولم يعتقدوا أو يصرحوا ولو لمرة واحدة بأن ثمة مؤامرة أمريكية على المنطقة.

13. فيما بعد الثورات أصبح الإسلاميون يُتهمون بأنهم حلفاء الغرب، في الوقت الذي يردد فيه كثير من الليبراليين (مع قطاع كبير من اليساريين والقوميين) بكل حماس مقولة المؤامرة الأمريكية. هذا التناقض والتحول

(1) د. نادية مصطفى، د. سيف الدين عبد الفتاح (إشراف عام)، موسوعة الأمة في قرن، عدد خاص من حولية أمتي في العالم، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، مكتبة الشروق الدولية، 2002).

(2) راجع مقدمة د. سيف عبد الفتاح للعدد السابع من حولية أمتي في العالم: د. نادية مصطفى، د. سيف الدين عبد الفتاح (إشراف عام)، حولية أمتي في العالم، العدد السابع (الإصلاح في الأمة بين الداخل والخارج)، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، 2007).

في المواقف يكشف عن تراجع الخطاب العقلاني، خاصة لدى قطاع من الشعب ممن هم عرضة لحرب العقول وآليات التلاعب بها. بحيث يمكن الخلوص إلى نتيجة مفادها أننا في مرحلة هزلية لا يكاد يصلح فيها إقامة حوار عقلي على أسس سليمة للأسف.

أ. مدحت ماهر:

لديّ مداخلة حول السؤال الخاص بالكيفية التي تطورت من خلالها استراتيجياتنا العسكرية عبر التاريخ الإسلامي، فاستراتيجيات الحرب كانت من التنوع بمكان؛ ويمكن الإشارة إلى محطات مهمة في إطارها:

1 - **الحروب الكبرى**: كما بين الفرس والروم، ثم بين الدولة الإسلامية وهاتين الإمبراطوريتين.

2 - **الحروب بالوكالة**: كما كان الحال على أطراف الجزيرة: في الحيرة (المناذرة) والغساسنة، ثم اليمن والحبشة.

3 - **النفل**: وهي مجموعات غير رسمية ولا نظامية توجد على أطراف الدولة، تقاتل أعداءها ولا تتحمل الدولة مسئوليتهم. باكورتهم كانت ما يعرف بقصة "أبي بصير" زمن الحديبية في العهد النبوي، ثم حدث مثلها في الدولة العباسية وفق ما ذكره محمد بن الحسن الشيباني في كتابه "السِّير الكبير". (هل هي السَّيْر أم السِّر؟)

4 - **التعديل العسكري لنظام الحكم** - وليس الانقلاب - كما فعل فيروز الديلمي مع المتنبئ الأسود العنسي (في أواخر حياة النبي ﷺ).

5 –الجهاد والنصرة والولاء عن بعد، كما في كل من الأندلس والمغرب الأقصى، وأيضًا في المشرق في مواجهة الحروب الصليبية في حملاتها الأولى (الناصر عبد الرحمن – يوسف بن تاشفين – عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود...).

6 –تأسيس دول على أساس من الجهاد، سواء الجهاد الإصلاحي حين تفسد أحوال الطوائف المسلمة وتبتعد عن دينها، أو الجهاد الدعوي لإدخال الناس في دين الله عز وجل والدعوة إلى الإسلام (كما في دولتي المرابطين– الموحدين وإمارات أفريقيا بعد ذلك).

7 –الجهاد بالجيوش ضد الغزو الخارجي، كما حدث ضد المغول، والصليبيين ثم ضد الهجمة الأوروبية.

8 – المواجهات النظامية وغير النظامية ضد الغزوات الاستعمارية في ربوع الأمة من الهند شرقًا (الشهيد أحمد) إلى المغرب والجزائر (الخطابي، عبد القادر الجزائري، عمر المختار، أحمد عرابي، المهدي السوداني، بكر صدقي العراقي، يوسف العظمة في سوريا...)، وآخر حروب الدولة العثمانية للحفاظ على ما تبقى من ولاياتها، حتى سقطت هي نفسها بنهاية الحرب العالمية الثانية 1918 وأعلن عن إنهاء الخلافة 1924. كما تعد مرحلة القرن التاسع عشر مرحلة خاصة للجهاد الإسلامي الوطني ضد المغتصب والمعتدي الأوروبي.

9 –مرحلة حرب 1948 وما بعدها: ولها صلة نموذجية بالحديث عن "القوة العربية المشتركة" فهذه حرب هزَم فيها اليهود – بسند غربي كبير –

جيشًا عربيًّا ادعى التوحد وأنه مؤلَّف من خمسة جيوش عربية، ولكنه ادعاء وُلِد ميتًا، وانتهى قبل أن يبدأ وفيه دروس مهمة. ومن المهم الإشارة إلى مركزية القضية الفلسطينية في سياق هذا التطور، وذلك منذ ثورة القسام في الثلاثينيات، ثم مع إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية ومجموعات الفدائيين ومجموعات أبو جهاد وأبو نضال وغيرهم منتصف الستينيات. وهو نضال وطني تواءم مع فكر اللحظة، وكان من المفترض أن ينمو، لولا الوضعية الاستثنائية لإسرائيل في السياسة الدولية والإقليمية والتي أسهمت في وسم هذه النضال بالإرهاب.

10 - فترة بزوغ الدولة القومية في العالم الإسلامي، وفيها فتر الجهاد قليلًا، واقتضت مقولة الاستقلال الوطني دواعي رفع السلاح. وقد أعقب هذه المرحلة ظهور ما عرف بالتيار الجهادي الإسلامي، والذي أخذ أربعة أو خمسة أطوار:

الطور الأول: طور الخلايا الانقلابية الصغيرة في أواخر الستينيات وعبر السبعينيات.

الطور الثاني: طور التنظيمات الانقلابية الأكبر، واتسمت بالقطرية والعمل على إسقاط أنظمة الحكم في بلدانها بحجة خروجها عن الإسلام. وقد استغرقت السبعينيات والثمانينيات.

الطور الثالث: جهاد مناطق التداعي في الثمانينيات وحتى منتصف التسعينيات (أفغانستان، الشيشان، البوسنة والهرسك، كوسوفا، كشمير، تركستان الشرقية، الفلبين- الصومال...).

الطور الرابع: مرحلة منتصف التسعينيات، بدأت بمحاولة إعادة تجربة الطور الثاني من خلال ما سمي بـ"العائدون" من أفغانستان، من ألبانيا، وفيها جرت أحداث مصر والجزائر.

حتى وصلت إلى مبادرة وقف العنف في مصر 1997. لكن واكبها حدث مهم ميز هذا الطور الرابع، وهو تأسيس الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبين (القاعدة) عام 1996.

11 – وبالعودة إلى الطور المتعلق بالقاعدة، فقد مثل نقطة تحول كبيرة، بتحويل الوجهة القتالية من إسقاط الأنظمة القطرية إلى إعلان الحرب على الولايات المتحدة، وبالفعل شنت عمليات كبيرة ضدها (1998 – ضرب دار السلام ونيروبي، 2000 ضرب المدمرة يو إس كول في مياه عدن، 2001 ضربة 9/ 11 الشهيرة...)، في هذه المرحلة تحولت (القاعدة) إلى حالة أكثر من كونها إشارة لاسم تنظيم مسلح.

12 – حرب العراق افتتحت طورًا خامسًا يمكن تسميته طوْر داعش/ أو تنظيم الدولة، أو طوْر إدارة التوحش أخذًا من اسم كتاب يعتبر مرجعًا استراتيجيًّا لهم كتبه من يسمى أبو بكر ناجي. ويناقش استراتيجياتهم لإعادة المواجهة إلى منطقة الشرق الأوسط مع الاحتفاظ بأرض وتأسيس دولة واستدارج الغرب مع تثوير الشعوب.

د. نادية مصطفى:

من المهم أن تُقرأ هذه الأجيال أو الأطوار في ضوء التراجع في أدوار الأنظمة الوطنية وجيوشها في التعامل مع التهديدات والاعتداءات الخارجية؛ حيث أدى نكوصها المستمر عن القيام بواجباتها إلى طرح السؤال المنطقي: من سيدافع عن الأمة والأرض والثروة؟ وتمثلت الإجابة الواقعية في ظهور بدائل، بغض النظر عن تقييمنا لهم، كان دافعها الأساسي هو مجابهة هذه التهديدات (الغربية والشرقية) وتعويض التراجع الحاصل في أدوار الأنظمة والجيوش الوطنية.

هذا التحليل يتجاوز فكرة الدوافع الدينية والتأويلات النصوصية التي أدت لظهور مثل هذه الكيانات المسلحة، وما إذا كانت تستلهم عقائد جهادية أم إرهابية، إلى البحث عن الأسباب الواقعية، والظروف التاريخية (الداخلية والخارجية) التي أدت إلى تبلورهم كفاعلين على الأرض. فلابد من الوصل بين الأمرين.

من ناحية أخرى فإن هذه التطورات تعطي حجية لنظرية حروب الجيل الرابع؛ فكلما استخدم الغرب القوة العسكرية أو ساند الأنظمة المستبدة أعطى مبررًا لقوى وجماعات (من غير الدول) للعمل المسلح سواءً ضد المصالح الغربية أو ضد الأنظمة الحليفة للغرب، وعلى أساس من هذا التحليل تنبع أحد أوجه معقولية مقولات النظرية الأصلية لحروب الجيل الرابع.

خاتمة

من المهم التأكيد في الخاتمة على أن نظرية "حروب الجيل الرابع" ليست من نوع النظريات الكبرى، فهي نظرية ضيقة، تخدم أغراضًا محددة في إطار عملية صنع القرار الأمريكي، ولا تقدم مجموعة بدائل كاملة لصانع القرار بما يغطي كافة الاحتمالات داخليًّا وخارجيًّا. كما أنها لا تسعى لتمرير نبوءات ذاتية التحقق مثل نظريات صراع الحضارات أو نهاية التاريخ، وذلك لأنها حين نشأت كانت ترصد ظواهر فعلية على الأرض (الانتفاضة الفلسطينية، والمقاومة في جنوب لبنان)، ولم تتحدث عن أوضاع افتراضية بغرض سوْق مسارات الأحداث صوب تحقيقها.

من ناحية أخرى لا يمكن مقارنة نظرية حروب الجيل الرابع بالمنظورات الكبرى في حقل العلاقات الدولية، كالواقعية والبنائية والليبرالية، فهي وإن كانت تقدم نصائح عملية تحذر على أساسها صانع القرار الغربي من أن ما لديه من استراتيجيات وخطط لم يعد يتناسب مع التطور الذي لحق بطبيعة الحرب، لاختلاف طبيعة الفاعلين، وشكل التفاعلات، إلا أنها تسكت عن تقديم مقولات أو فروض تحدد من خلالها الهدف النهائي للتفاعلات الدولية، أو القضايا الأوْلى بالتناول، أو طبيعة التفاعلات - غير العسكرية - بين الدول.

من مظاهر محدودية النظرية أيضًا أننا لا نعثر في إطارها على "الآخر" إلا بوصفه خصمًا مدانًا، وخطرًا محتملًا، فهي نظرية مُعدة لمصلحة طرف واحد (الولايات المتحدة)، وذلك لمساعدته على فهم خصمه (الآخرين)، ولا تطرح نفسها كنظرية عامة يمكن لأي طرف أن يوظفها لفهم التفاعلات الدولية. الغريب بحق أن البعض ممن ينتمون إلى خانة "الآخر" (الخصم) قد توحدوا – رغم ذلك – مع النظرية، ووجدوا فيها بغيتهم، وذلك لكونها تتسق بشكل من الأشكال مع مشاريعهم الخاصة بالاستمرار فى السلطة من دون سند من شرعية معتبرة. فالنظرية تروج لفكرة العدو الضروري (الجماعات من غير الدول/ الإرهاب)، وتظهره في صورة الخطر القادم، ومن المفهوم أن ادعاء مواجهة مثل هذا العدو الوجودي الذي يتهدد بقاء الدول، تحت يافطة محاربة الإرهاب، يوفر فرصة ذهبية للأنظمة الاستبدادية للبقاء فى الحكم إلى أجل غير مسمى.

التأكيد على محدودية نطاق النظرية أمر ضروري لنقدها عل أساس من طبيعتها الذاتية وليس على أساس مما يتخيله الآخرون عنها، فالنظرية في النهاية كيان قائم بالفعل، فى إطار أبحاث ودراسات ومقولات منشورة، وليست مجموعة من الأسرار التي يطلع عليها البعض دون الباقين. كما أن النظرية تتناول وقائع حدثت فعليًّا، ومن ثم فإنه ينبغي أن يتم تقييمها من خلال ما تناقشه من وقائع، وليس من خلال تفحص نوايا من قاموا بتطويرها، وما إذا كان غرضهم التآمر على المنطقة وتفتيتها أم لا.

ويرتبط بهذه النقطة مسألة تقييم السياسة الخارجية الأمريكية تجاه المنطقة، وموقعها من ثنائية الاستقرار والفوضى، فالإجابة عن التساؤل حول ما الذي تريده أمريكا من الشرق الأوسط، وما إذا كانت تريد استقرار المنطقة، مع ما يتضمنه ذلك من القضاء على كافة مصادر الاضطراب بها، أم تريد الفوضى وذلك من خلال بث سيناريوهات حروب الجيل الرابع فيها، نقول إن الإجابة عن هذا التساؤل ينبغي أن تتحرر من التفكير وفقًا لثنائية إما/ أو. فالحاصل على أرض الواقع أن أمريكا تريد استقرار واستمرار تدفق مصالحها في المقام الأول، ولا يعنيها استقرار المنطقة في ذاتها، أو لا يشكل ذلك أحد أولوياتها، فمن المفهوم أن تتناسب أولويات أمريكا طرديًّا مع مصالحها، وأن تتبع عددًا من استراتيجيات للتدخل في المنطقة بما يحقق استقرار هذه المصالح، ومن المفترض أن يبين لنا التحليل الموضوعي لهذه الاستراتيجيات لماذا يؤدي بعضها أو معظمها لعكس مراده ويوقع المنطقة في الفوضى.

فالفوضى في حد ذاتها لا تصلح كاستراتيجية، وذلك لأنه لا يمكن ضبط مخرجاتها، أو التحكم بها، ومنظومة السياسة الأمريكية هي فرع عن فلسفات الحداثة التي تسعى إلى التحكم الكامل، بل وميكنة هذا التحكم إذا أمكن، وهذا لا يمكن أن يتحقق من خلال نشر الفوضى، التي هي – بحكم التعريف – غير خاضعة للتحكم، كما أن المنطق يقضي بأنه بالنسبة

للدول الكبرى فإن التحكم في الاستقرار أجدى وأنفع من محاولة إدارة الفوضى، وأن فرض الاستقرار هو ما يفترض أن تقوم به هذه الدول عندما تحاول إدارة مصالحها في المنطقة.

ولكن هل ينفي ما سبق أن أمريكا والغرب يتدخلون في شؤون المنطقة، وأن تدخلهم يفرز دومًا نوعًا من الفوضى الضارة، بطبيعة الحال لا يمكن إنكار ذلك، ولكن يمكن إرجاع هذه النتيجة إلى السياسات الفاشلة لفرض النفوذ أكثر منها إلى كونها اختيارًا مقصودًا منذ البداية. بعبارة أخرى يمكن القول إن فوضى التدخل الأمريكي في الشرق الأوسط هي منتج جانبي لسياسات فرض الهيمنة وليست سياسة مستقلة. فالإدارات الأمريكية، أيًّا كانت الخلفية الحزبية لها، تستلهم بشكل من الأشكال أسس النظرية الواقعية، التي تفضل أن يظل النظام الدولي مؤلَّفًا من اجتماع عدد من الدول، كما تفضل أن تفرض النظام/ الهيمنة إما على نحو صريح من خلال استخدام القوة أو التهديد باستخدامها، أو عبر فرض ترتيبات إقليمية مستقرة ينهض على حمايتها وكلاء إقليميون، وليس من خلال إشاعة حالة من الفوضى التي تهدد بقاء الدول كوحدات سياسية، وتفقد القوة العسكرية فاعليتها كأداة معتبرة.

من ناحية أخرى لو كانت الفوضى تصلح كاستراتيجية حقيقية، لوجدت الإدارة الأمريكية فرصًا كثيرة لزيادة معدلاتها، ولكنها على

العكس لم تبادر إلى ذلك في سياقات كثيرة، على سبيل المثال لم تحاول الإدارة الأمريكية توظيف اتفاقها النووي مع إيران لزيادة منسوب الفوضى بالمنطقة، فما إن بدأت المفاوضات الأمريكية الإيرانية، حتى استضاف الرئيس الأمريكي باراك أوباما ستة من زعماء الملكيات العربية ضمن قمة كامب ديفيد، لطمأنتهم أن أمريكا مستمرة فى دعمهم. وزيادة فى الطمأنة لم يكن الإصلاح السياسي بندًا من بنود المباحثات؛ وإنما انصب التركيز على تعزيز الشراكة لمواجهة التحدّيات المشتركة. بعبارة أخرى لم يكن الهدف الأمريكي من المباحثات مع إيران هو خلق حالة من الفوضى الإقليمية، ولكن ضمان استقرار المصالح الأمريكية مع إقناع الحلفاء الإقليميين بأن أمريكا لا يمكن أن تسلمهم إلى الفوضى. ولنفس هذه الاعتبارات تتعامل الإدارات الأمريكية ببراجماتية كبيرة فيما يتعلق بقضايا حقوق الإنسان والديمقراطية داخل الأنظمة الحليفة لها؛ حيث تظل هذه في مؤخرة الموضوعات محل الاهتمام المشترك، فيما تأتي في مقدمتها التحديات الأمنية على اعتبار أنها تمثل أولوية ضمن أهداف الأمن القومي الأمريكي المعنيّ باستقرار المصالح الأمريكية.

يبقى القول إن أمريكا تستفيد من الفوضى الإقليمية، كما تستفيد من أي شيء آخر، على سبيل المثال من خلال تعاقدات إعادة الإعمار، وبرامج تدريب وتسليح الفصائل الموالية لها. أما سيناريوهات التقسيم فتتحقق

بدرجة أكبر على يد أنظمة الاستبداد، الذين يمثلون الحماة الحقيقيين لميراث سايكس بيكو.

من المهم إذًا تحرير العقل العربي من نظرية المؤامرة، ليس لأن أمريكا والغرب فوق مستوى الشبهات، ولكن لأن التفكير بهذه الطريقة يعفي أنظمة الاستبداد في الداخل من مسؤولياتها عن الحضيض الذي وصلت إليه الأمة العربية، ويصورها - عن غير حق - في صورة المتصدي لمؤامرات الخارج، فى الوقت الذي تشكل فيه سياسات هذه الأنظمة مصدرًا لا ينضب للفوضى واستمرارًا لواقع التقسيم وتعميقًا له.

ونظرًا لمحورية دورها في صناعة الفوضى فإن تساؤلًا رئيسيًّا يفرض نفسه بخصوصها وهو: هل ستنجح أنظمة الاستبداد من خلال التلاعب بمقولات نظرية حروب الجيل الرابع وغيرها في التواؤم مع التحديات التي تحذر منها النظرية وأهمها تحدي "الحروب غير المتماثلة" (كما نجحت إلى حد كبير فى إجهاض ثورات الربيع العربي من قبل)، وهل يمكن أن يمتد زمن الاستبداد الحالي لكي يضاهي في طوله أزمان الاستبداد التي عاشتها الشعوب العربية في أعقاب حصولها على الاستقلال في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي؟

الإجابة عن هذه الأسئلة يمكن تلخيصها في عبارة موجزة مفادها أن الديكتاتوريات العربية قد استنفدت معظم الأرصدة التي اعتمدت عليها في

الماضي لكي تطيل أمد بقائها في السلطة، بحيث يمكن القول إن استمرارها في المرحلة الحالية يعكس نوعًا من "القصور الذاتي" أكثر من كونه يعكس امتلاكًا لـ"قوة دفع" حقيقية تمكن هذه الأنظمة من الاستمرار في لعب الأدوار التي لعبتها في الماضي. ولكن رغم ذلك فإن لدى هذه الأنظمة عددًا من الأوراق التي مازالت تراهن عليها وتحاول أن تعوض من خلالها قصورها الطبيعي.

أولى هذه الأوراق هو احتكارها لاستخدام "أدوات العنف" داخليًّا. فبشكل عام تبدو أنظمة الاستبداد في هذه المرحلة أكثر جرأة في ممارسة واستعراض بأسها عن أي مرحلة سابقة، ويتعلق هذا بكون التهديد الذي تواجهه في هذه المرحلة تهديدًا وجوديًّا أكثر منه تحديًا نمطيًّا عاديًّا، وعليه فإنها تبدو راغبة وقادرة على خلع كافة الأقنعة التي كانت تتخفى وراءها، والتي تشمل أقنعة حكم القانون، والديموقراطية، والشرعية. فلا بأس الآن من الحكم بقوة السلاح، ولا بأس من ممارسة الاستبداد من دون حجاب، ولا مانع من أن تخرج الشرعية في هذه المرحلة من فوهة المدفع وليس من صندوق انتخابات "مزورة".

أما الورقة الثانية المتاحة لأنظمة الاستبداد فترتبط بقدرتها على المناورة والحصول على الدعم الدولي (وإلى حد ما التأييد الداخلي) في إطار ما يطلق عليه الحرب على الإرهاب؛ حيث تتذرع هذه الأنظمة بوجود "الجماعات من

غير الدول" لتسويق خدمات "مكافحة الإرهاب" لقوى الخارج للحصول على الدعم والاعتراف. ويستمر الدعم والاعتراف الدوليين طالما ظلت القوى الخارجية بحاجة إلى من يحقق لها الاستقرار الإقليمي بأي ثمن.

أما على المستوى الداخلي فتنجح هذه الاستراتيجية أيضًا في دفع الجماهير التي يحركها الخوف من الجماعات المتشددة إلى الاحتماء بأنظمتها على الرغم من أدائها السيء، ويستمر الدعم الجماهيري طالما استمر الخوف من المصير الفوضوي الذي يمكن أن تؤول إليه أوضاع البلاد قياسًا على تجارب مماثلة، أدى فيها العنف إلى خروج الأوضاع عن السيطرة.

ويبقى السؤال: هل هذه الوضعية مرشحة للتغير في الأمد القريب؟ في الواقع تبدو أنظمة الاستبداد ممسكة بزمام الأمور على الرغم من كل ما يحيط بها من مظاهر للفوضى، إلا أن التغيرات الإقليمية تبدو أعقد من أن تنجح هذه الأنظمة في التعامل معها أو البقاء بمنأى عن تداعياتها. ومنها بلا شك التغيرات في طبيعة الحروب التي يحتمل أن تضطر هذه الأنظمة إلى الانخراط فيها، فمهما تكن فاعلية أسلوب القبضة الغليظة على المستوى الداخلي ومهما تكن قدرتها على المناورة على المستوى الخارجي فلا يبدو أن بمقدور هذه الأنظمة أن تضبط التفاعلات التي تمس استقرارها على المستوى الإقليمي والدولي باستخدام هذه الأساليب.

فالمنطقة كلها تبدو في حالة مخاض تأخر عن موعده الطبيعي بعدة عقود، والأنظمة التي خلفها الاستعمار كأنظمة شبه حداثية لن تستطيع أن تتجمل بقشور الحداثة أكثر من ذلك. خاصة وأن هذه الأنظمة قد تلبست حداثة الشكل دون المضمون. فقيم العقلانية والرشادة وحكم القانون تحولت في إطار تجربة الاستبداد العربي إلى قيم للفساد والمحسوبية وحكم الهوى، وذلك خلف غلاف أنيق من المؤسسات التي يفترض أنها تعكس أسماء وصفات القيم الحداثية.

وإذا كانت الشعوب حاليًا تسدد القدر الأكبر من تكلفة هذا المخاض الإقليمي، فإن الأنظمة أيضًا تبدو مرشحة لتغيرات كبرى في إطاره. خاصة وأن تصور نجاح نظم الاستبداد في أن تظل مستقرة في وسط أجواء الفوضى الإقليمية يبدوا تصورًا بعيدًا، وهذه إحدى النقاط التي تحسب لنظرية "حروب الجيل الرابع" وهي إلقاؤها الضوء على ما يمكن أن يسمى بأثر الفوضى (Chaos effect). فالحرب اليوم تقع خارج التصور الذهني المنضبط للعسكريين، بعبارة أخرى إن المستبدين اليوم ينزلون إلى ملعب لم يعتادوا عليه، ويخوضون مباريات لم يلعبوا مثلها من قبل. والفوضى هي المتغير المهم الذي تلمح إليه هذه النظرية فيما يستقبل من صراعات. والقاعدة البسيطة هنا أن محاولة الحفاظ على الاستقرار من خلال إجراءات تعمق من الفوضى تبدو محاولة بعيدة عن النجاح.

صحيح أن هناك قطاعات من الشعوب العربية مازالت مستعدة للتعايش مع الاستبداد، وقادرة على تبرير الفساد، إلا أن وجود مثل هذه القطاعات لا يمكن أن يخرق نواميس الاجتماع الإنساني، التي تؤكد على أن الظلم مؤذن بخراب العمران، وأن المنظومات المعبأة بالفساد، وانعدام الكفاءة، والظلم لا يمكن أن تستمر في مقاومة العوامل التي تدفعها إلى نقطة اللاعودة.